نظرية الزمن المقلوب

أحمد عمر فقرا

رواية

حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف

إهداء

الى الوحيدين في دروب الحياة

والى شريكة دربي

وزوجتي..نوارة.

جدول المحتويات

الفراشة العابرة..... 6

زوجة فاقد الذّاكرة 14

أيّها الموهوب..... 30

تمارا 44

أحقاد الماضي 51

النتيجة المرجوّة..... 62

الحكمة البالغة..... 69

فنّ المقايضة الصحيحة..... 81

الفرصة الذهبية..... 93

آلة تحقيق الأحلام..... 101

البنك القومي 112

التّفاحة الذهبية.....123

قطار الحياة.....130

حيّز الموهبة 138

نظرية الزّمن المقلوب 148

إعاقة الارتباط 155

قرائن الحقّ.....167

النظرية والأزواج.....183

(1)

الفراشة العابرة

رقد عدنان ياسين في مستشفى الكرمل في مدينة حيفا، بعد حادث مروريّ أصيب على أثره بفقدان الذّاكرة التّقدميّ. في السّاعة السّادسة من أول صباح، سمع عدنان حديث ثلاث ممرضات يتكلمن فيما بينهن تفصل بينهم ستارة بيضاء عليها رسوم لورود الاقحوان القرمزي!

إنّه ما زال شابا على عوارض تشبه الزهايمر، وماذا فعل حتى يُعاقب بهذا الشكل القاسي؟

لا أدري لمَ تتسائلين عند كل مصاب، ماذا فعل ليستحق ذلك؟ فلعلّ السبب شيء لم يفعله!

اسمعوا أذّكركم بما تعلمون. لقد دخلنا الحياة من دون شروط، وأنّ أحدا لم يضمن لنا أن تمُرّ حياتنا بسلاسة كسلاسة التنفس؛ فتوقفوا عن إلقاء الأحكام!

لقد احتدمت المعركة في رأس عدنان، وقد ظهر ذلك جليا في ارتجاج رجله اليسرى، وضع يده اليسرى وحاول تثبيتها لكن بلا نجاح. كان خائفا جدا. أعتقد أنه الخوف من نقطة اللاعودة. وما المودّع إلا ذاته التي عهدها، وشخصه الذي ألفه. هل هي نقطة الفشل الذريع والانسلاخ عن المسار الطبيعي أم هي نقطة بداية لما بعدها؟ وكيفما يعتبرها فإنّه مما لا شك فيه أنّه حديث عهد بأزمة قصوى زلزلت كيانه.

كان عدنان يجهد كثيرا محاولا تذكر اين وضع هاتفه النقال؟ ومحاولا تذكر ملامح الطاقم الطبي الذين يمرون من أمامه ويلقون التحية مظهرين معرفته، لكن محاولاته جميعها باءت بالفشل. كان يتعقب ذكرياته ويحاول ملامستها بيد أنها كانت أسرع منه في الهروب، خيّل اليه أنه يمشي على القمر مطاردا

أفكارا تمشي على الأرض وأنه محاط بمادة لزجة تمنع احتكاكه بالذكريات. تقدم اليه الطبيب عبد المجيد ياسر:

قل لي يا عدنان! من اتصل بك في الصباح الباكر؟

حاول عدنان التذكر ولم ينجح، عقد حاجبيه وضغط بالسبابة والوسطى من كل يد على طرفي جبينه، فقد قيل ان الضغط يحرك المادة؛ فلعل مخه يحرك الركود ويكف عن إخفاء الذكريات. انه لأمر جلل ألاّ يستطيع الإجابة عن سؤال تقليدي كهذا وإنها انتكاسة كاسرة ألاّ يستطيع أن يجيب عن سؤال عظيم كهذا! عندئذ أخرج عبد المجيد هاتفه النقّال ثبته بكف يده اليمنى وأخذ يضغط بسبابته اليسرى على شاشته ثم أدار الهاتف الى عدنان وحين نظر عدنان الى الهاتف رأى ملف الفيسبوك الخاص به؛ فضغط الطبيب على صورة ثم سأل عدنان:

هل تعرف من هذا؟

تأمل الصورة لثواني معدودة ثم هزّ رأسه بشكل عموديّ وقال:

نعم ... إنّه والدي مصطفى.

عندئذ نظر عبد المجيد الى طلابه الذين يُحيطونه كحذوة فرس وسأل:

من منكم يستطيع تشخيص الحالة؟

قال أقلّهم جسما ذو الشعر البني:

إنّه فقدان الذاكرة التقدمي أستاذ!

نظر اليه عبد المجيد بإعجاب وسأله:

ما هي ميزة الفقدان التقدمي؟

فقال الطّالب:

هو عدم القدرة على تذكّر الماضي القريب، وعدم القدرة على تكوين الذّكريات بعد الحادث، بينما الذّاكرة التي كانت قبل الحادث محفوظة.

تساءل عدنان " ما معنى أن أتذكّر كلّ شيء قبل الحادث المروريّ وأنسى كلّ شيء بعده؟". وما زاده كلام الطبيب إلاّ حيرة وريبة حين صرّح بأن فقدان الذاكرة لا يخضع لنظرية معينة ولا لتوقيت خاص. لكن السؤال الملح هو هل فعلا توجد نواح في حياتنا لا تخضع لنظريات معينة؟ أم أن عدم قدرته على الإحاطة بها جعلته يقول ذلك، فغالبا نحن البشر نعتبر ما لا نعلمه، غير موجود.

طارت من أمام عدنان فراشة في مشهد يبعث على الغرابة فقال: "فراشة في أكتوبر!". كانت تتنقل في برد المشفى فأحسّ أنّ ردّة فعله لم ترق للدرجة الأولى من سلم الغرابة؛ فتساءل ثانية بصوت جهوريّ " ماذا تفعل فراشة في هذا الوقت!" وإذا بممرضة رشيقة تظهر بلمح البصر وتختفي في لمح البصر

لا تستغرب يا عدنان ... لقد اعتدنا على مشاهدتها طيلة العام ... إذا رأيناها علمنا أنّ لدينا فقيدا.

تناول عدنان هاتفه، وبحث عن رمزية الفراشات عند الشعوب المختلفة في جوجل؛ فصدم حين رأى أن كثيرا من الشعوب تؤمن بأنّ ظهور الفراشات يدل على الفقدان والموت وتساءل هل طارت من أمامه بسبب فقدانه للذاكرة، وكذلك ترمز لدى الكثيرين الى التغير الحادث، كونها كانت شرنقة وتحولت الى فراشة وبما أنها كانت تدّب على الأرض وصارت تطير في حيز من الفضاء الواسع فإنّ التّغير الذي ترمُزه يكون الى سعة وعظمة، لعلّها رسالة أنّه في فقدانه هذا سيصل الى سعة وعظمة. في الواقع لقد آثر التمسك بالتفسير الإيجابيّ، بسبب الخوف؛ فالرمزية الأخرى للفراشات قاتمة تدخل في عالم الأرواح، ولذلك آثر أيضا ألاّ يتعمق فيها، وقرر أن يبحث ويقرأ عن الفراشات في فصل الربيع وليُطمئن نفسه قال:

هذه الفراشة كانت عابرة ... لم تحطّ على سريري ... لا شكّ أنّها تجاوزتني الى غيري.

في العشرين من شهر أكتوبر القادم ستكون ذكرى ميلاد عدنان الثالثة والثلاثين، وقد قطع عهدا على نفسه أن يحتفل كما احتفل في السنوات الماضية. في الحقيقة لم تكن إحتفالاته في الماضي مبالغ فيها ولم يحب أن يظهر بهرجة لكنه الآن يرى في الاحتفال المتواضع بملامحه الكاملة إنجازا، وقرر أنّه عندما يحين يوم ميلاده سيكون قد أجهز على التّمرد الذي قامت به ذاكرته وأن يُخضعها من جديد، لكن هل تكفي عشرون يوما لذلك؟

تعجبني عزيمتك يا عدنان، لكن احذر أن يهزمك الزمن؛ فيسيئك ويستحوذ عليك ويسرق عمرك بالمحاولات الفاشلة. لست من الذين يكسّرون مجاذيف السعي الى المنال إلاّ أنني أفكّر في أنّ العزيمة بلا طريق منصوب للتطبيق كإحراق الوقود للحصول على النور في مكان لا توجد فيه مصابيح! عندما أراد عدنان أن يهاتف أحدا لم يجد هاتفه فظنّ أنّه قد سُرق، لكنّه حين بحث مرة أخرى قبل أن يطلب المساعدة وجده داخل

المخدة؛ فتوصل الى قناعة أنّه قد خبّأه بنفسه خوفا من السّرقة؛ فتحسّر وقال:

إذا كانت هذه معاناتي مع هاتفي في حيز لا يتعدى مترين... فكيف ستكون إذا حياتي اليومية!

ظهر عليه الضيق وغضب غضبا شديدا وضرب بظاهر كفّه قنينة ماء بلاستيكية كانت على الطاولة المُخصّصة له؛ فوقعت على الأرض وانسكب الماء منها، وضلّت على وضعها هكذا عدة ساعات، حتى غضب هو نفسه على الطاقم بسبب وجود ماء على الأرضّية، متعللا أنها قد تؤدي لمصيبة إذا ما انزلق أحدهم، ثم أظهر استغرابه من الناس الذين يفعلون شيئا كهذا ويمرون وكأنّ شيئا لم يحصل، وحين أعلموه أنه هو من سكب الماء تنهد وقال:

آهٍ إنني سقيم ... وليس كل مريض سقيم!

(2)

"زوجة فاقد الذّاكرة"

طرأ في عقل عدنان طوفان من أفكار كثيرة وسمع صوتا داخليا يخاطبه: " لمَ على الانسان أن يلاحق الماضي وأن يحلم أن يكون ما كان يوما من الأيام، آه لو تتعلمون الترحيب بما آتى وتستقبلونه بحبّ؛ لرأيتم العجب. لكنّكم عموما ترون في الهجر خسرانا وفي الترك هزيمة، إنّ فهمكم ليس دقيقا; فإنّ في هجر المطر للغيوم حياة للأرض". كان هذا الصوت غريبا عليه وأحسّ بانّه مخيف وغامض. كان الصوت واثقا ثقة المجرب الخبير. أخذ عدنان يفكر في الصوت الذي تكلم من خلاله وحاول اكتشاف مصدره ووضع عدة احتمالات فظنّ أنّه صوت الأرض التي انزعجت من جبروت البشر ولو أنّهم فقدوا بعضا من سلطتهم

لصالح الاجناس الأخرى لكان جيدا، أو أنّه صوت الأزمات التي تُنبأ بهشاشتها وبسرعان زوالها بقليل من الصبر أم انه قانون حفظ الطاقة في ذواتنا يبشرنا أن ما فقدناه لم يختف وإنّما تحول الى صيغة أخرى، لكن خوفه الشديد من أن يكون هذا صوت الدورية الطبيعية والذي ينص على أنّ كل ما تملكه مؤقت. في نفس اللحظة، ظهر الدكتور عبد المجيد بابتسامة لطيفة على محياه ثم جلس على سرير عدنان وقدم لعدنان أحد كوبي القهوة التي كان يحملهما بيديه ثم تحدث اليه:

كيف حالك يا عدنان؟

كان عدنان مستغربا من تواضع عبد المجيد المفاجئ، ثم ما لبث أن زال الاستغراب حين علم ما يريده الطبيب منه، وهو باختصار أنه يطلب مساعدة عدنان في تجربة فعالية دواء جديد على فقدان الذاكرة التقدمي وفجأة قطعت حديثهما مريضة فطنت الى وجود الطبيب فطلبت منه مسكنا للآلام فغضب غضبا شديدا وقال:

أليست لديك عينان ترين بهما أنني مشغول الآن ..

توجهي الى طبيب آخر لست وحيدا هنا.

لم يوافق عدنان على طلبه بحجة أنه يحتاج لوقت للتفكير؛ فما كان من الطبيب إلاّ أن نهض وخرج؛ فتساءل عدنان عن سر الحاجة حين تجعل من الشخص انسانا وتخرج رقته ومعاملته المحترمة مع المحيطين به. كثيرون يظنون أنّ كوب القهوة والابتسامة الرقيقة ما كانا ليخرجا الى هذا العالم لولا حاجة عبد المجيد الى عدنان في تلك اللحظة، وهم صادقون في ذلك فإنّ الابتسامة جهد وكوب القهوة جهد والناس عموما يجهدون لأجل مقابل؛ حسيا كان أم ملموسا. هنالك امر ترددت كثيرا في قوله لأنني أعلم أنه سيفتح أبوابا كثيرة من الجدليّة لكنّه شغلني كثيرا هل يكون الحبّ جهدا من دون مقابل أم تقع عليه قوانين الحاجة بحذافيرها!

لم يتنبّه عدنان أنّ بانتظاره معركة شرسة خلف المنعطف القريب؛ لذلك فهو لم يتأهب لها، معركة لا تفقه لغة الحراب إنّما

لها أسلحتها الخاصة التي لا يعلم عنها شيئا. " المعركة على الذات غير مألوفة" قالها عدنان في نفسه، ثم تذكّر أنّها ليست المرة الأولى التي يسبح فيها عكس المألوف. حين كان صبيا سمع كلاما كان كفيلا لمده بالقوة، لكسر حاجز العادات الصماء والتابوهات العرجاء. إنّه اليوم مستعد أن يجرّب أيّ شيءٍ في سبيل غايته. إنّ "عكسَ التيار" سنة كونية لها ثقلها، هي خاصة بالمميزين والموهوبين؛ فقلّما تجد زحاما عند المنبع. هي نفسها التي تستخدمها أسماك السلمون؛ ليضع بيضه، ولولاها لانقرض ولفقدنا أحد ألذّ الأطباق على موائدنا. كانت في جبين عدنان ندبة، كلما نظر اليها تذكر الكلام فتشجع وأحس أن باستطاعته - لو أراد- أن يعكس دوران الأرض, وتحت الندبة عينان عسليتان وبشرة بيضاء، كان طويل القامة. توفيت أمه منذ زمن، بيد أنّ كلماتها لم تمت؛ فما زالت تجوب الأرض تتبخر مع مياه البحار؛ لتهطل فوق قمم الجبال. فرب كلمة تشجيع قيلت من دون تخطيط أو حتى انتباه عمّرت نفسا سنين طويلة. إنّ الكلمات لبنات النفوس، وقد كان عدنان محظوظا بأمّه، التي كانت

تشجعه وتعينه على نوائب الحياة. عندئذ قال " آهٍ لو كنت هنا يا أمي، من مثلك يرشدني برفق ورأفة". إنّ باستطاعته أن يستحضر كلمات أمّه كلما أراد؛ لكنه شوق اللقاء.

تنّهد عدنان وقال" آه يا ذاكرتي، كيف تعلمت أن تخوني؟". رفع باطني كفيه للأعلى وفكّر: "ما قيمة الانسان من دون ذاكرة؟". حري به أن يقلق؛ فإنّ من طُمست ذاكرته خشي عليه من الاندثار، ومن التيه على غير هدى يرشده ولا منارات توجهه. تفقد عدنان جنوده؛ لبدء معركته الضروس لإخضاع ذاكرته، فما وجد الا زوجته المحبة جليلة. فعلا إنّ أقوى العتاد امرأة محبة، إنّها خير معين وأوفى جندي؛ تقاتل بضراوة وتداوي الجراح بنعومة.

أمّا حُبّ عدنان لجليلة وحبها له، فتلك أحداث مشوقة ولولا خوفي من الاطالة، لكنت قصصتها عليكم وإنّي على يقين أنّ عدم ذكري لقصة حبّهم المتأججة ستُحزن عدنان، إذ إنّه لا يرى قصة حياته كاملة من دون أحداث حبّه لجليلة، بالإضافة الى أنّه يعدّها إحدى إنجازاته، إن كان الحب يعتبر إنجازا، وباختصار شديد

نقول، إنّ أكثر النوازل عنفوانا تلك التي تأتي على غفلة وأكثر الامراض فتكا تلك التي تظهر فجأة، وكذلك فإنّ أعذب الحب هو الذي يبدأ صدفة. تلك النظرة الأولى التي تقلب الموازين وتشَد الأرواح. كان لقاءهما في إحدى جامعات حيفا كان هو في السنة الثانية طالبا في كلية الهندسة وكانت هي طالبة في السنة الأولى، وحين التقت نظراتهما، تخّرجا فورا وحصل كل منهما على شهادة من كلية الحب. لا شك أنك جربت حين تعلق في ذهنك اغنية فتبقى، تُدندن بها طيلة اليوم تدفعها؛ فتأبى إلاّ أن تكون في المقدمة وهكذا كان حبّهما، فقد طغى على كل شيء آخر وحافظ على مركزه في المقدّمة حتى تكلّل حبّهما بالزواج. عندئذ أحسّ عدنان براحتي زوجته على كتفيه؛ فشعر براحة تتغلغل الى رأسه فقال:

أين كنت يا جليلة... لقد تأخرت كثيرا يا نور الفؤاد

كانت جليلة تقاوم عبوسها بابتسامة خفيفة بين الفينة والأخرى، فقد علمت أن حياتّها قد قُلبت رأسا على عقب، وأنّهم قد ودّعوا

الاستقرار النسبي الذي عاشوا به حتى الآن، على الأقل في الوقت القريب عند المتفائلين. خاطبها عدنان قائلا:

إنّي أحسّ بحزنك يا نور الفؤاد... سنتجاوز هذه المحنة كما تجاوزنا ما قبلها... أعلم أنّ النّاس يميلون الى مواساة المتضرر الأكبر، لكنني أعلم كم هو صعب عليك، ستجدينني دائما الى جانبك.

آه... وما أدراكم ما المتضرر الثانوي، ذلك الذي يقف في الكواليس، صاحب الظل القاتم الذي لا يُرى إلّا بعد فوات الأوان حين يترقى؛ ليصبح متضررا رئيسيا. في الغالب يكون المتضرر الثانوي قريبا جدا من المتضرر الرئيسي؛ فإذا فرضنا جدلا أنّ المتضرر الرئيسي من حادث معين بلغ 80% والمتضرر الثانوي بلغ 30% ، فإنّ الناس عموما يُقبلون الى الأوّل ويهملون الثاني، وبالتالي فهم يغفلون عن حقيقة صادمة، وهي أنّ المتضرر الثانوي بحاجة لمساعدة لا يعطها، وقد يكون متضررا ثانويا في قضايا كثيرة ومختلفة؛ فتراه يجمع نسبا كثيرة،

عشرين من هنا وعشرة من هناك وأربعين وخمسين ويعاني وحده؛ لذا نهيب بأصحاب القلوب الرحيمة أن تداوي كل جرح؛ رئيسيّ كان أم ثانويّ.

لعلّ مشكلتنا الأساسية تكمن في التعريف إذ ماذا تقولُ عن جليلة "زوجة فاقد الذاكرة". إنّ هذا التعريف لا يعبر عن تغيير ولا تحول يذكر عند جليلة، مع أنّها تعاني أشدّ معاناة، وتمر بأزمة قاهرة في بيتها الذي فقد الاستقرار؛ لذا علينا كبشر أن نوسّع تعريفنا للحالات، فإن فرضنا أنّها متضررة؛ فذلك يكفيك حتى تهبّ لتخفيف ذلك الضرر.

قضى عدنان عدة أيام في المشفى، رأى حوله نهاية العالم، كثيرون أرهقهم النزال فجثوا على ركبهم مستسلمين، وآخرون هزمتهم الامراض حتى غدت أجسادهم كالخشب اليابس. لكن جذبت انتباهه سيدة سمينة، وجهها مستدير كالبدر، تبدو في الأربعين من عمرها. تراها متصلة بجهاز تنفس اصطناعيّ، تقبل ما يعطيها من الاوكسجين بدون طمع وبتواضع، ويتناغمان معا

بثقة كراقصي سالسا. لقد تمرد جسدها على روحها؛ فلم يعد يستجيب، ولم تعد عضلاتها تنقبض. المفزع أنّها كانت طيلة الوقت هادئة ومبتسمة، كأنها في حضرة جبال شاهقة مكسوة قممها بالثلوج، تسيل أودية منها الى مستنقع يتجمع فيه الماء الصافي، يمنع أشّعة الشمس من الولوج فيعكسها. لديها من الرضى والصبر ما يكفي عشرة عاشقين. إنّي أعتقد أنّ مع البلاء عوالم خفية لا يعرفها الا المجربون، عوالم تتفتق من بين أصابع المصائب، وما تمرد الذاكرة أمام تمرد الجسد الا كجبل الكرمل أمام قمة افرست، لكن ما هكذا تقاس الأمور! قال عدنان في نفسه " لقد رأيت مصيبة غيري، لكن لم تهُن عليّ مصيبتي! بل أصابني الجزع". إنّها لم تكن لوحدها؛ فلم يفارقها زوجها أبدا إلّا لقضاء حاجته، وكان يمسح بيده الساخنة من سهر الليالي على جبينها المتلألئ بنور الرضى ويضم شعرها المتناثر، ما أجمل الوفاء! إنّه فعلا كما يقال: معاً عند الحلو والمر. أقبل زوجها الى عدنان، إذا نظرت اليه حسبته مصاص دماء، وإذا أردت أن تشاهد شرايين العيون بوضوح؛ فانظر الى عينيه. كان طول

مقامه في المشفى يعطيه الأحقية في إسداء النصائح فقال: "إنّي آكل أصابعي ندما؛ لأنني لم أتقبّل ما حدث لها منذ البداية، وقد تركتها تقاوم المرض اللعين وحدها. اسمع يا عدنان إنّ علينا أن نتقبّل ما نحن فيه بلا مكابرة ولا عناد، ولطالما صحت بصوت كالرعد: لماذا أنا؟ لماذا من بين كل النّاس؟ لقد كانت لدي أحلام وطموحات لم أبلغها بعد! لكن اعلم أنّك كلّما استوعبت وتقبلت بسرعة، كان أنفع لك. ها أنا كما ترى أعتني بزوجتي ولا أهملها". استمع إليه عدنان بصمت، رغم أنّه شعر باستغاثة أُطلقت من روحه تتوسل إليه أن يصمت، خاصة وأنّ تشجيعه عاد بنتيجة عكسّية، حتى إنّ عدنان قد ذُعر وخفق قلبه بشدة، لمجرد تفكيره في كون فقدانه للذاكرة سيكون دائما. تذكّر عدنان عندما كان في الخامسة من عمره، حين شرب بالخطأ من برميل البنزين، لقد شرب حتى ارتوى، كان من الممكن أن يُكتب اسمه في موسوعة جينيس من كثرة ما شرب. وراحوا يهرولون به الى مشفى الطوارئ، وهو محمول على الأكتاف فاقدا وعيه، وحين

استيقظ قالت له أمّه كلاما ما زال يذكره " إن كنت نجوت من هذه؛ فبمقدورك أن تنجو من أيّ شيء".

بدأ أصحاب القمصان البيض ينتشرون في القسم بعشوائية، يجرون حواسيب متنقلة، إذا نظرت إليهم، ظهروا كأنهم في سباق عربات في كولوسيوم روما القديمة. توقف الطبيب عبد المجيد أمام عدنان، وقال: "ماذا حدث!" كان عدنان قد أجابه عن هذا السؤال ست مرات، أحصاها عبر كتابته على هاتفه النقال. فقال في نفسه "لا أدري من فقد الذاكرة هنا!" لكنه مع ذلك شرح للطبيب عن فقدان قدرته على التذكر منذ الحادث. "اسمع يا عدنان، إنّ جميع التحاليل لا تظهر لنا تفسيرا منطقيا عما حدث! إنّنا لا ندري كم ستعاني من فقدان الذاكرة". بأسف شديد أقول، إنّ الطب على عراقته وتقدمه، يقف عاجزا كالرضع أمام كهولة الذاكرة. ليس لك أن تلوم الطبّ، فقد تطور بثبات، لكن الاجسام عوالم كاملة وعلوم كثيرة. سمع عدنان صوتا خافتا من داخله: "أفلا تدعُ الأمور على عواهنها؟ فإنّك كالذي يبحر في ليلة ظلماء؛ فلا نجوم يهتدي بها، ولا يابسة يأوي إليها". لم يساوره شك في

أنّ هذا الصوت، صوتُ الخوف من المستقبل، حيث ظهر ليثبّطه عن السّعي، بادّعائه أنّه لا توجد هناك غاية واضحة، وأنّ المستقر بعيد جدا، تفصل بينهما أمواج وأمواج. تجاهله وامضِ يا عدنان، إنّ ما يحدد وصولك الى المستقر هو ثقتك في وجوده مهما كان البون شاسعا. عليك فقط أن تفعل ما يمليه عليك قلبك، وإنّي أتفهّم، أنّ قلوبنا أقّل أعضائنا ثباتا وأكثرها تقلبا، لكنها الخريطة الوحيدة التي تقودك الى المستقر، حتى وإن كانت متهالكة أو ممحية المعالم؛ فهذا أفضل من لا شيء.

كان يرقد عن يساره رجل هادئ الطباع، يدعى سمير، حيث كان يعاني من سرطان البنكرياس، ويتألم بهدوء من دون صخب. كانت الممرضة تسأله "اختر مقدار ألمك بالأرقام من واحد حتى عشرة، حيث يدل الرقم واحد على وجع بسيط كعضّة نملة، والرقم عشرة يدلّ على أشدّ وجعٍ عرفته البشرية!" دائما ما كان يجيب "عشرة"، بابتسامة خفيفة وهدوء ليسا من هذا العالم، وبذلك استطاع أن يحوز على لقب المريض المميز. في الحقيقة لم يعلم عدنان حتى هذه اللحظة أنّ في الألم تمييزا، وأنّ من

الألم ما يثير الحسد. من الذّي زاغ عن طبيعته الإنسانية، هل سيغدو مجرما في عيون الناس؛ لاختياره النضال في سبيل استرداد ذاكرته؟ فجأة تذكّر مقولة سمعها " في الحياة لك أن تختار، إمّا أن تُنفق من نفسك قبولا؛ فتتقدم في عيون الناس، وإما أن تنفق من نفسك صمودا؛ فتتقدم في عيونك، وليس لك أن تجمع بين الأمرين، إنّه الحسم إذا".

قال عدنان بصوت خافت لا يسمع جاره" أين اختفيت يا جليلة، أين أنت يا زوجتي الجميلة!" كانت صاحبة جمال ورقة، يضعها محل تقدير أينما حلّت. إنّ هذا التقدير جعله يوكلها مهام المرحلة. لكن لعلمك، إنّ التوكيل الذي أساسه الجمال لا يكفي. إنّها بحاجة الى ثبات الجلمود. إنّ شمس حبهما لا تحجبها غيمة. في الوقت الراهن، ثقة عدنان بزوجته كانت أكبر من ثقته بأفكاره التي تجتاحه وتختفي، إنّها بالنسبة له، جذعه المغروسة في عمق الحقيقة، منها يستمد كيانه المتأرجح; فتستقر نفسه. حتى وإن لم تأتِ لغاية الآن؛ فلا بدّ من أنّ هنالك شيء قاهر حبسها، وستأتي حين تسنح لها الفرصة. إنّ الحياة ستتبدل، لكنها لن

تتوقف، بل ستأخذ منحى جديدا؛ فبدل أن يكونا كالملقط، سيكونان كالإبرة والخيط، وسيكون من نصيبها الغرز والتوجيه. كان يعدّ كلاما ليقوله لها "أعدك أنّ هذا الأمر، لن يطول". مهم جدا أن تسمع منه جليلة هذا الكلام، فانها غير قادرة على قراءة الأفكار، لكن احذر من الوعود؛ فالارض مبلولة بعد شتاء أول، وهي زلقة جدا. فُتحت الستارة. لقد جاء لزيارته صفوان، صديقه منذ الطفولة. بشرته سمراء، وشعره أسود طويل، يكاد يلامس حاجبيه. لقد عاشا معا مغامرات كثيرة، مرة حاولا أن يتسلقا أعلى قمة في إفريقيا، قمة كليمنجارو، بحماس منقطع النظير وبعنفوان شبابي. كانوا يصيحون بصوت يسمع النسور" سنري كليمنجارو من البركان هنا!". يتذكرون؛ فيضحكون. يتساءل صفوان في دهشة " أما زلت تتذكر التفاصيل!". نعم، لحسن حظه ما زال يتذكر كل شيء قبل الحادث. لم يُكتب لهم النجاح في بلوغ القمة، فعلى مقربة من معسكر هوروبو هات، انزلقت رجل صفوان؛ فسقط ولم يقو على النهوض، فقال بصوت متغضّن بالحسرة " أكمل وحدك يا صديقي، سأتدبر أمري في

النزول". لكن عدنان بأخلاقه الدمثة، لم يكن ليترك صديقه بهذه الحالة، وآثر أن يصحبه في طريقه للنزول من الجبل. شعر عدنان بالأسى الذي سيرافقه طيلة عمره، إذ تلاشت أحلامه في معانقة السحاب، والجلوس على عرش إفريقيا. أقسم أنّه سمع القمّة تناديه، وهو يهمّ في النزول. عندئذ تيقن أنّ أصحاب التضحيات ليس لهم مكان في القمم، لكن الأمر في نظره محسوم، لا نترك صديقا وراءنا!

تنهدّ عدنان وقال " ما زلت شابة كأول يوم رأيتك فيه يا جليلة". فعلا إنّنا لا نشيخ في الذاكرة. نحن نكبر من الخارج فقط! إنّ الزمن يتوقف عند نظرات الحب، ترتبك الحواس وتخلع ثوب الحياء؛ فتصّر على التحديق غير آبه. تذكر عدنان أول مرة شاهدها فيها، وتذكر عدم قدرته عن إشاحة بصره عنها فقال "آه أيتها العيون العاصية، بمن تأتمرين؟". من يشفع للإنسان عند نظراته لتترك عنادها وتأتمر بأمر صاحبها؟ فإذا لم ترتدع فمصيرها محتوم، حين تخرج عن طورها! ثم تذكر يوم زفافه وقال "ما أجمل ثوب الزفاف يا جليلة، هذه السّاعة تعدل حياة

كاملة، ثوب زفاف أبيض يليق بشعرك الأسود المُنسدل، وعيونك الخضراء المبتهجة، تراها تدور دورة كاملة من دون أن يغشاها جفن؛ لتُكوّن فصولي الأربعة"، وكأنّ صفوان قد عرف ما يفكر به عدنان، فقال: " لقد زارتك جليلة صباحا، رأيتها في موقف السيارات".

قال عدنان محدثا نفسه "أعدك، سأقف من جديد يا أمّي". حين كان عدنان صغيرا، وقع من دراجته، وشرع في البكاء، ولم يتوقف حتى وقفت أمّه فوق رأسه. كان الدّم يسيل من جبينه، فقالت أمّه بحزم: " قُم؛ فأنت لم تمت!" يا لهذه الكلمات كم أثّرت في نفسه! لقد تمّ حقنه بجرعة تشجيع، تكفيه لحياة كاملة! وحتى إن لم تكن أمه حاضرة؛ فكلامها يجري في دمه، وعليه جُبلت خلاياه

(3)

أيّها الموهوب

في أكتوبر، تتسلل ذرات هواء قطبية؛ تلسع الوجوه. إنّها سُنّة التنبيه الكونية؛ فالإنسان منهمك بطبيعته، لا توقظه النعومة إنّما اللسعات. وهو ما يجعلني أفكّر، إننا معشر الناس نحب الجمال، لكنّه لا يقوى على زحزحتنا من أمكنتنا؛ بسبب عنادنا المُستميت. إنّ ما تحرّكنا هي الأزمات واللسعات، إننا وبكل أسف نستجيب للألم أكثر مما نستجيب للحب! وليست هذه حالة البشر فقط، إنّما حال كلّ من سكن هذه الأرض. الأشجار في مخاض، لكنّها ولادة جنين ميت. تتألّم بصفع الهواء البارد، وتتألّم بالفقدان. ادفعي بقوة أيّتها الأشجار العزيزة؛ فالماء السّاخن

أصبح موضة قديمة. عليكم أن تعلموا أني في حياتي كلّها لم أجرؤ أن أكشف مستورا، أو أن أقطع صمتا متصلا بجلبة الولوج، إنّنا سندخل بيتا له حرمته وأسراره. سنمشي في ردهاته ونكشف عن أفكار دفينة بعوامل الزمن، حتى أضحت طبقات فوق طبقات لها نظام خاص بها. يحرُم عليكم أن تكشفوا ما لم يُكشف، وأن تروا ما يُر لكم. لعمري، ما كنت لأفعل شيئا من هذا القبيل؛ لولا الحكمة البالغة، والأثر العميق، فقد طغت المصلحة العامة، وإني لأتوبُ كلّ يوم من هذا الذنب.

حيفا، أمّ الملتقيان. الأرض والسّماء، البحر والغيوم، الجبل والساحل. كان عدنان وعائلته يقطنون في بيت صغير ومتناسق، في حي وادي النِسناس. عند مدخله، من جهة اليمين مساحة صغيرة، اعتادوا زراعة أزهار موسمية. في هذه الأيام من كل عام، يغرسون أبصال التوليب، بألوانه المختلفة؛ فتنمو بكثافة في مساحة تكفي لشجرة نخيل واحدة. من جهة اليسار، ثُبّت مقعد خشبي بالأرض. يجلسون عليه يراقبون نمو الأزهار، ويقشّرونه بأيّ شيء حاد، كان محفور عليه أسماء قاطني البيت كلهم،

وأسماء من سكنه قبلهم، مع الكثير من رسومات القلوب والإشارات المختلفة. يبدو عليه القدم، وأرجله مُتشقّقة، يخيّل إليك أنّه يحنّ إلى أصله؛ فيوما ما كان الناس يتأملونه بإعجاب. عاد عدنان الى بيته؛ فاستقبلته جليلة، بحضن دافئ أوقف رعشة البرد من غربة المشفى. ودخلوا من باب خشبي أخضر، ليس غريبا على حيفا. منقوش عليه بخط الرقعة (جليلة & عدنان). أعدّت جليلة وليمة تليق بهذا المقام، إنّها أكلة المُسّخن بزيت الزيتون، وقطع الفراخ المحمرة مع بهار السُّماق، المرشوش بكرم شديد فوقه. كانت جليلة ترتدي فستانا صيفيا، يظهر عليها البرد، وعلى يديها ظهرت حبيبات القشعريرة متراصة وتملكتها رعشة، إنّما ارتدته لأنّ عدنان كان يحبه جدا.

نظرت جليلة الى عدنان وابتسمت وقالت: "حبيبي عدنان، أيّها الموهوب؛ لقد حباك الله بذاكرة فذّة. سأكون ساعة يدك، ومنبهك، وذاكرتك المؤقتة، سأكون ظلّك حتى تستعيدها!" كان عدنان يتمتع قبل الحادث بذاكرة صاروخية؛ يحسُده عليها الجميع. إنّه يتذكر أدّق التفاصيل، إنّها ليست ذاكرة عادية. كان

متأكدا أنّ فقدانه للذاكرة، بسبب عين أصابته. إنّه يتذكر الساعة العاشرة من يوم الاثنين، قبل خمسة عشر عاما؛ تعابير وجوه ثلاثين طالبا في صفه، وملابسهم، وهيأة الأستاذ وحديثه. إنّه يتذكر شكل أمّه، التي توفيت قبل عشرين عاما، وإنّ ما يجعلها موهبة كونها عنده عشرة أضعاف، الإنسان العادي. كان عدنان سعيدا جدا بموهبته هذه؛ فهو لم ينس قط ملامح أمّه، وكأنّها لم تتركه أبدا، وهذا لعمري؛ يثير غيرة الفاقدين أحبّائهم وأعزائهم. إنّه ليس بحاجة الى صور تذكره، فلديه شريط حي في رأسه. وإنّ حالته، هي ثاني أفضل حالة، بعد إمكانية لمس الاحباب والأعزاء. أمّا الآن؛ فلم تُسلب موهبته فقط، إنّما سُلبت ذاكرته التقدمية كلها. وقد انزلق الى الأسفل عدة مراحل في لحظة واحدة! إنّ المسافة بين الذاكرة العظيمة وغياهب النسيان، كالمسافة بين القمر والأرض السّابعة، طويلة وموحشة.

إنّ ذاكرته الفذّة التي تمتع بها قبل الحادث، أغرقته بسيل مهول من الذكريات، وإذا ما تساءل أحدنا، هل القدرة على التذكر

التفصيلي نعمة أم نقمة؟ فإنّ الإجابة مركبة؛ فاستحضار المآسي ألم نحن في غنىً عنه، واستجلاب الماضي الدقيق، يعطي قوة وخبرة عظيمة. وفي يوم ما قبل الحادث سألته جليلة:

عدنان! ألا تعتقد أنه من الجميل أن تكون لك ذاكرة كهذه ... لا شك أنّك تتذكر لحظة التقينا وتشعر بها وكأنها تحصل الآن!

بعض الذكريات سعيدة... لكن لو كان لدي الاختيار كنت أختار التنازل عنها!

حقا... ولم ذلك؟

نعم نعم يا نور الفؤاد... إنّ هذه الذاكرة لا تعترف بتقدم الزمن... إنّي أتذكّر يوم زفافي منك بنفس التفصيل الذي أتذكّر به يوم وفاة أمي... ما زلت أبكي في الليل حين أتذكر ملامح أمي الباهتة، وفمها المفتوح، وشفاهها المنقبضة.

أخذ عدنان يبكي بحرقة فحضنته جليلة وفهمت معاناته، وحمدت ربّها في سرّها، على جعلها طبيعية كباقي البشر، وأرادت أن تخفف عنه فقالت:

هون عنك يا حبيبي... وفكر في أحداث تجلب عليك الفرح.

آه... لو تعلمين أنّي أحاول جاهدا، لكنّ الذكريات القاسية تتغلب دائما على الذكريات الناعمة، وتعلوها كما تعلو الطحالب المستنقعات الراكدة. النسيان نعمة يا عزيزتي.

كان عدنان على يقين أنّه وُهب هذه القدرة، لحكمة معينة؛ لكنه لم يستطع أن يجد حتى إشارة توصله لتلك الحكمة، خاصة أنّ الذكريات الفذّة لا حاجة لها، بسبب وجود الكتب التي توثّق كل شيء، فلعلّ هذه الموهبة كانت تخدم الناس قديما، وفقدت أهميتها مع الزمن، لكنه هدئ من نفسه وتمسك بإيمانه، بأن كل ما يوجد في الحياة فهو موجود لحكمة معينة لا شيء يشذ عن القاعدة.

في الخامس من أكتوبر عام 2019، بقي حتى يوم ميلاده خمس عشرة يوما. جلس عدنان في الخارج مع جليلة، يراقب أرض الحديقة الصغيرة، التي تبدو كالعجينة المنتفخة، الحُبلى بأبصال التوليب. ثم تساءل باستغراب "هل من الممكن أن ينمو التوليب للأسفل؟" فأجابت جليلة:

أعتقد أنه ينمو للأعلى، لأنه يشعر بأشعة الشمس الدافئة، إنّه يتطلع لينفتق عن الأرض، باحثا عن كيانه المستقل! حيث لا يبقى في باطن الأرض إلّا الأموات.

ألا تحنّ إلى ما كانت عليه يوما؟

ماضيها لا يكاد يذكر يا عدنان!

أتعتقدين يا جليلة أنّ الماضي مهم في حياة الانسان؟

مم، طبعا مهم؛ فهو ما يجعلنا نختار الأفضل لمستقبلنا، لكن رأيي لا يهم؛ سأكون عونا لك فيما تحب، وفيما تسعى اليه.

وددت لو جمعتنا الأفكار، كما جمعنا الحب!

أترى يا عدنان، إنّ أزهار التوليب التي سوف تنمو في هذه الحديقة الصغيرة، من نفس التربة، ستكون تجربتها مختلفة وأشكالها متباينة؛ فالتجربة كبصمة الإصبع، خاصة بكل مخلوق!

كانت أمام البيت، شجرة سرو معمرة، لها مملكتها الخاصة؛ في صمتها سر لو تبوح به لانتهى العالم الذي نعرفه، وفي اضطرابها تذكّرك بهشاشة الانسان. حين تصغي اليها، تحسّ بكيمياء عجيبة بينكما، إنّها ليست غريبة في حيفا؛ فهي مليئة بالممالك الصغيرة. لونها الأخضر منبع للحكمة! وكثيرا ما كان عدنان يبدي إعجابه بحكمة جليلة، وبالفعل فإنها كانت حكيمة جدا، بل إن العطف الذي كانت تنثره عند الأزمات هو قمة الحكمة، والعطف سمة المحبين؛ إذا فالحب منبع الحكمة.

كانت جليلة جمال تكره الماضي، وبالنسبة لها فإنّ ماضيها سجل مطوي، موضوع في صندوق من الفولاذ، مقفل بإحكام،

ومخبأ في باطن أرض ملعونة، لا يدوسها أحد إلاّ واحترق. هناك الكثير من الشائعات، التي تقول أنّ جليلة تعرضت للاغتصاب، ومنها أنّها تعرضت لتعنيف والدها السكّير. كانت تردد دائما " لقد ولدت حين تزوجتك يا عدنان". ربّ ماض مخفي لو ظهر؛ لأورث عداوة، لذلك فإنّ عدنان لم يسألها قط عن ماضيها، ولم يكن يهمه كثيرا. في الواقع، كان عدنان يخاف أن يستعمل ماضيها ضدها، في لحظة ضعف إنسانية، أو لحظة غضب جامحة؛ فتتأجج الكراهية والعداوة بينهما، من بعد حبّ وتسامح. وبما أنّه علم أنّ الألم نائم لا يختفي، يصحو بعد التّذكير؛ فلم يتحرك لسانه بسؤال، أو استفسار عما كان والتزم بالتخطيط معها عما سيكون!، وبناءً على كل ما قيل؛ فإنّ نهج جليله كان " سأدعمك يا عدنان حتى تسترد عرش ذاكرتك المسلوب، لكن إيّاك أن تغرس في ظهري، خنجر الماضي السّحيق".

يحدث أن يكون مصدر قوتك، هو مصدر ضعف شخص آخر، هنا يكمن اختلافنا. وهو ليس خطأ في حد ذاته، إنّما الخطأ الفادح

هو في استخفافنا ببعضنا. إنّنا مجموعة تجارب حياتية مختلفة، وإنّ الموهبة الواحدة لن تبصر النور، ما لم تجتمع عدة تجارب حياتية مع بعضها، وإنّ اجتماع التجارب يبدأ في الصمت، والإصغاء لبعضنا البعض.

كانت جليلة تحثّ عدنان على طلب المساعدة الأخصائية؛ ليتذكر.

عليك أن تتذكر بسرعة؛ لأنّ مستقبل ابننا، بين يديك الآن!

كيف يكون مستقبل ابننا بين يدي؟ قالها بعيون مندهشة!

لقد نسيت مرة أخرى يا عدنان. يوم الحادث كنّا قد استلمنا شيكا من جمعية صفاء للأدوية اليتيمة، لشراء الوجبة الأولى من دواء السبيرانازا؛ الدواء الذي سينقذ حياة ولدنا مصطفى، إنّه مكلف جدا، لنحصل على هذا المبلغ وحدنا؛

علينا أن نعمل بجد لأربعين عاما. يتحتم عليك أن تتذكر أين خبأته في ذلك اليوم؟

يا ربي... أأتذكّر رسالة كتبتها بوضوح، قبل عشرين عاما، ولا أتذكّر شيكا مصيريا لحياة ابني، أيّ مصيبة حلّت علي!

لا تقلق يا عزيزي، غدا ستسمعه يناديك " بابا "، وسيمشي، ككلّ الأطفال في عمره.

كان مصطفى الصغير، ذو السنتين، يعاني من مرض نادر جدا يؤدي لضمور العضلات، ولقلة عدد المصابين به، ولتكلفة العلاج الجديد الطائلة؛ فإنّ وزارة الصحة لا تساهم في شرائه. لقد أخذ عدنان وجليلة على نفسيهما، لو اضطّرا أن يطرقا الأبواب؛ ليحصلا على المبلغ، ليتمكنا بذلك من الحصول على هذا العلاج. كانا يخططان أيضا لفتح صفحة على الفيسبوك؛ لتلقي المساعدات. حين نظر عدنان الى عيني جليلة، وهي تحدّثه عن طفلهما، تذكّر لوحة ليلة النجوم لفان جوخ؛ فلو نظرت إلى عينيها، لرأيت دورة حياة تتحرك في صمت، يقاومها جمود وتحديق.

اطمئني يا جليلة، بقدر ما يتسع قلبك الكبير، فإنّه لن يمر وقت حتى أتذكر كل شيء!

نظر عدنان إلى ابنه، المسجّى على تخت خشبيّ، يغُطّ في نوم عميق، وبراءة الأطفال كالهالة حول وجهه. شعره المتموج الذي ورثه عن أمّه، يضفي عليه تميزا. ثم تساءل "من أين حصل على الجينات المعطوبة؟". إنّه سؤال لا يطلق في حيز الواقع يا عدنان، بل يبقى في الخيال، كحال الكثير من الأسئلة التي لا نتجرأ على البوح بها، بالإضافة إلى كونه لا يفيد، بعد أن أصبح الخليط كيانا والخيال واقعا؛ لذلك أعتقد أنّ ما لا يوجد سبيل لتغييره، حري بك ألّا تضيع طاقتك في إثارته.

حتى لو لم تعلم إلى أين تتجه؛ فإنّ اختيار الطريق يبدأ بالسؤال. إنّ في الحياة التي نعيشها قوانين غير مكتوبة، وإنّك إن أردت أن تمضي فيها قدما عليك ألا تخالفها، هي قوانين خطّها من كانوا قبلنا، وهي ملزمة لنا فقط لأنّهم كانوا قبلنا؛ فما أنت إلّا مكّمل لما بدأوه. كنتيجة من كل ذلك، عليك دائما أن تسأل عن

المسلك الذي يوصلك لغايتك، بأقّل جهد وأقصى نتيجة. وإن تساءلت يوما، لمَ عليّ أن أكون كقطعة شطرنج؟، حينها عليك أن تعلم، أنّ اختياراتنا محدودة أكثر من عقولنا، وهو ما يؤلمني الآن بالذات. كلّ شيء في الحياة يريد جزءا واحدا منك، لا أحد، أو شيء يقبل كليتك. لا شيء ينظر إليك كوحدة واحدة. إنّ العمل يريد طاقتك الجسمانية، والتعليم مبني على طاقتك التفكيرية، والحب ثوب مفصّل على قدر طاقتك العاطفية. عموما إنّ السؤال عن اختيار الطريق، رضوخ للواقع وللمألوف. عادت جليلة بعد غياب ساعة كاملة، وما زال عدنان بنفس الوضعية، تهاجمه الأفكار من كل مكان. إنّ عمليّة التفكير، كتخصيب البويضة، يفوز بها الأقوى والأكثر تحملا. الفكرة الفائزة، هي الفكرة التي صمدت وقتا أكثر!

ماذا قررت يا عدنان؟، قالت جليلة!

قررتُ في ماذا؟

لقد نسي عدنان محادثتهما، التي كانت قبل ساعة، عن السبيرانازا، وعن مصطفى الصغير. واحتاجت الى أن تذكّره مرة أخرى. كانت عيناها تبدوان كالزجاج المصفّح، الذي يمنع الدموع من الانسكاب.

أعتقد أنه من الأفضل أن أستشير أخصائية نفسية؛ لعلّ لديها خبرة كفيلة في استرداد ذاكرتي!

إنّها فرصتنا يا عدنان؛ ليعيش ابننا، أرجوك أن تستجمع قواك.

لا تقلقي، لن نفقد السيطرة.

(4)

تمارا

توجه عدنان فورا الى مكتب تمارا حسين، الأخصائية النفسية، والتي نصحه بها صديقه صفوان. كان مكتب تمارا يقع في شارع حسن شكري، حيث يبعد عشرين دقيقة عن بيته. لو نظرت من نافذة المكتب؛ لأبصرت ميناء حيفا. كان عليه أن ينتظر كثيرا، حتى تفرغ تمارا من لقائها مع الزبون الذي قبله، إنّها مشغولة جدا، وما كانت لتستقبله تمارا لولا تدخل صفوان. وحين دخل عدنان إليها، طلب منها أن تساعده، في تذكر يوم الحادث على الخصوص، وبعد تفكير منها، ومراجعة جميع ملفاته الطبية قالت:

هناك طريقة كفيلة بمساعدتك على تذكّر ما نسيت. إنّها عبارة عن استخدام تيار من الكهرباء، لتحفيز الدماغ. حيث رأينا في كثير من الدراسات تحسنا كبيرا، في قدرة الناس على استعادة ذكرياتهم السابقة، لكن...

لكن ماذا؟

عليك أن تعلم أنّ هناك مخاطر جمة.

ما هي هذه المخاطر؟ قال باستغراب!

إنّ التّيار الكهربائي سيحفّز الدّماغ كله، وبالتالي فإنّ كلّ الوظائف الدماغية ستشهد تزايدا!

وما المشكلة في ذلك يا تمارا؟

إنّ الصدمة التي تعرضت لها، قد أنكرها دماغك؛ فإذا تسببنا بزيادة تحفيز منطقة الإنكار في دماغك، أخشى أن تفقد كل ذاكرتك، حتى التي كانت قبل الحادث!

صُعق عدنان من هول ما سمع، وما كان منه إلّا أن قام وترك المكتب وراءه، ثم ركب مع صديقه صفوان عائدا الى بيته. في الطريق لم يفصح عدنان عما جرى؛ لأنه كان غارقا في التفكير، حيث كان يقول "إنّه لظلم شديد لنفسي أن أبقى بلا ذاكرة، مهما كان السبب عظيما، وما قيمة المرء بلا تاريخ ولا تجارب، وكيف سأنسى وجه أمي، ووجودها في يوم من الأيام!" أحسّ بضيق شديد أفقده القدرة على التنفس، وأراد أن ينادي بأعلى صوته، أو أن يصرخ، ولكنّه لم يقدر. وماذا لو بدأت فعلا بحياة جديدة، وذاكرة جديدة، بعد هذا العمر. إنّها ليست أسوأ شيء يمكن أن يحصل لك، لكنّه أحسّ أنّه قد ضاق ذرعا بهذا الصوت، الذي يدعوه الى الأمل.

حين أضاءت الشارة الخضراء، رفع عدنان مكابح اليد في سيارة صفوان، بقوة؛ فحدّق به صفوان متفاجئا وقال: " ماذا دهاك يا عدنان؟". لحسن الحظ كان الشارع فارغا من السيارات، وحتى الآن لم يفصح عدنان عن غايته من ذلك، وحافظ على هدوئه ولم يستجب لتوسلات صفوان، حتى ظهرت من بعيد سيارة

مسرعة تقترب، وفجأة سمعوا بوق السيارة القادمة؛ فارتبك صفوان، وغضب ودفع يد عدنان بقوة حتى ترك المكابح، وانطلقوا، ثم التفت إلى عدنان قائلا:

ماذا دهاك! أجننت؟

كلا لم أجن بعد... لكنني، أردت أن أريك كيف يربكنا الخوف؛ فنتقدم بسرعة من دون تفكير. وذلك في إشارة منه الى هروبه من مكتب تمارا!

لا تعبث بالمكابح ثانية... إنه خطر، وموت محدق

اعلم أنّك ربما لا توافق عدنان في أسلوبه، هو ببساطة لم يقو على الشرح المفصّل لما حصل. أراده عدنان أن يحسّ بذلك، فقد اعتقد أنّ الكلمات لن تسعفه مهما كانت دقيقة، وذلك لأنّ الكلمات على اتساعها تبقى جزئية، ولأجل التعبير عن شعور كامل مركب، فإننا بحاجة الى كلمات كثيرة، لا يتسع لها أيّ موضع. ورغم ذلك لم يفهم صفوان لأن الأحاسيس فردية، ولن

يفهم صفوان لو شرح له أسبوعا كاملا ذلك أنهم قليلون جدا، من يفهمون تجارب غيرهم، ويتعلمون منها.

وحين علمت جليلة بالخبر، اسودّ وجهها كمدا وحزنا، فهي تعلم أنهم لا يملكون وقتا كافيا، فإنّ لديهم حياة طفلهم على المحك!

ماذا لو جرّبت يا عدنان؟ ألا تنقذ حياة طفلنا؟

أنت تريدينني خشبة في هذا البيت أو حيطا، لا يفقه شيئا، لكن لماذا لا نتوجه الى جمعية الأدوية اليتيمة، ونطلب أن يوفروا لنا شيكا جديدا بالمبلغ؟

لقد جربنا ذلك مسبقا. ثم وضعت راحتي يديها على وجهها وتمنت لو ينقطع نفسها!

وماذا قالوا؟

قالوا أنّهم سيفحصون من أنّ أحدا لم يحرر الشيك في البنك، ثم سيبدؤون المعاملات من جديد. الوقت يداهمنا

يا عدنان، قالوا بأنّ ذلك سيأخذ على أقل تقدير شهرين كاملين، ونحن قطعا لا نملك هذا الوقت.

تساءل عدنان، إن كان الناس يتطوعون للمساعدة، فلماذا عليهم أن يختاروا بروتوكولات معقّدة، أم أنّ طواعية العمل تُحررهم من القيود. لماذا يأتي المتطوعون متأخرين دائما؟ لماذا وُجدت الأمراض النادرة؟ لماذا وُجدت أشياء تخطّت قدرة الفرد الواحد على التعامل معها؟ أيعقل أنّنا وُجدنا على فرضية أن يكون الجنس البشري متكاتفا ومتآلفا.

" أتعلمين يا جليلة، إني إن فعلت ما تطلبين؛ فلن أتذكّر أول مرة رأيتك فيها، ولا أول كلمة قلتها لك، ولا أول عناق، هل سينهار صرح حبنا الجميل؟ ألن يعمّر كما عمّر التاج محل! هل مركز الحبّ في الذاكرة يا جليلة؟ أم أنّه يسكن في مركز الإحساس؟ حتى وإن كان يسكن في مركز الإحساس؛ فإنّه من كثرة ما أحسسته في حبنا، اتسّع مكانه حتى ولج الى مساحة الذاكرة".

خرج عدنان مع صديقه صفوان؛ ليفكّر بوضوح، وقد اتّجها معا

إلى تلّة ستيلا ماريس، مشيا فوق البحر، حيث زرقة الماء تبعث على الأمل، وغيوم السماء المتراكمة تُشعرك بالمعية، وأنك لست وحدك في هذا العالم الشاسع. ثم جلسا فقال صفوان:

أتعلم يا صديقي، أعتقد أنّ عليك أن تختار أن تنقذ ابنك، مهما كلفك الأمر، فأن تكونا كلاكما على قيد الحياة، خير من أن يموت أحدكما!

وهل تعتقد يا صفوان، أنّ هذا الأمر موضوع للنقاش؟ بل إنّه أمر محسوم.

إذا أين المشكلة يا صديقي؟

إني أخاف من الخسارة، ألا ترى كم من الممكن أن تكون الخسارة فادحة؟ إنّ فقداني الكلي للذاكرة سيهلكني، وسيقضي على احتمال نجاة مصطفى.

(5)

أحقاد المّاضي

الثامن من أكتوبر عام 2019، "لن تهبط علينا الحلول من السّقف يا عدنان، برودك يقتلني. الانتظار يعني الموت!" بدا وكأنّ جليلة فقدت ايمانها، وبدأت تفقد سيطرتها. لكنها صادقة في قلقها؛ فالحياة تمضي، والقضايا المعلقة يحسمها الزمن، وأسوأ الأحكام هي أحكام الزمن؛ فإنّه قاضٍ قاسٍ، يبتّ في الأمور من دون إصغاء ولا أعذار. إنّه أصّم لحاجات الآخرين؛ فإذا دارت رحاه، طحن من دون تمييز. طُرق الباب بقوة، قاما بجزع وتوجه عدنان تلقاء الباب وفتحه، إنّه مصطفى، والد عدنان، ثم حدّق عدنان به؛ فقد كاد أن ينسى ملامحه!

أبي!

نعم أبوك... ماذا دهاك يا عدنان؟

كان مصطفى الأب، منعزلا في بيته منذ عشرين عاما، فقد قرّر أن يترك مضمار الحياة، لحظة توفيت فيها زوجته. في نظرة خاطفة إلى داخل المنزل رأى حفيده مصطفى، يقوم ويسقط، عظامه بارزة، وظهره مقوسه؛ فرقّت له حاله.

اسمع يا عدنان، اشترِ بذور الكتان من السوق، ثمّ اطحنها واخلطها بسمنة بقرية، وأطعمها لمصطفى كل صباح، حتى يتحسن!

دخل مصطفى إلى حفيده؛ فحضنه. لكن عدنان أحسّ بتهديد يقترب منه، فهو يتذكّر أنّ والده وجليلة لم يكونا على وفاق، ويعود ذلك إلى أنّ مصطفى، عارض عقد قران جليلة مع ابنه، بحجة أنّ هناك إشاعات كثيرة حولها، وأنّه لا يوجد دخان من

دون نار، ولا يمكن التهاون في تأسيس العائلة! لكن عدنان وقف في وجه أبيه حينها:

اسمع يا أبي، لا يمكن أن تحمّل إنسانا، مسؤولية غيره، وتعلم أنّه لا تزر وازرة وزر أخرى. جليلة إنسانة جميلة، وأنا أحبّها.

لا يكفي الحب يا عدنان! إنّك سوف تتزوجها بعُقدها ومشاكلها. العائلة يا ولدي ليست مركز علاج، ولا مختبر تجارب.

إنّها لا تتعدى كونها إشاعات! لقد حسمتُ أمري، سأتزوجها، إني أختار السير وراء قلبي.

كانت جليلة تعلم بالمحادثة التي حصلت وقتها، ففي البداية كانت تبغضه بشدة، ولكنها مع الوقت آثرت مسامحته، فهو كأيّ أبّ، كان يبحث عما يظنه يصبّ في مصلحة ابنه، ولم يكن يعرفها حق المعرفة. بدأت جليلة تبحث في كل أنحاء البيت عن الشيك

الضائع، فلن تجلس مكتوفة الأيدي، تستجدي المساعدة ممن لا يملك القدرة على ذلك.

فتح عدنان دفترا كان يسجّل فيه ملاحظات وقرارات، كي يساعده على التذكر، ثم قرأ جملة تحتها خطين وحولها دائرة " أختار التيار الكهربائي". الأمر الذي أرعب والده فقال:

هلا تذكّرني بموقف مع أمك يا عدنان؟

لماذا تريد أن أذكّرك يا أبي؟

تعلم يا عدنان أن قدرتك على تذكر الماضي، عجيبة وهي موهبة، والموهبة أمانة عند صاحبها، لا يمكن أن تفرّط بها. عليك فقط أن تعرف فداحة الخسارة التي ستقبل عليها!

لم تكن جليلة قادرة على السكوت أكثر، وقد تأكّدت أنّ قدوم مصطفى سيجرّ معه مصيبة. فقد جاء في توقيت حرج، بعد ان حسم عدنان أمره، وخلُصت إلى أنّ قدومه المشؤوم، يحطّم بقايا الأمل، ولذلك لم تتمالك نفسها فقالت مخاطبة مصطفى:

إنّها السبيل الوحيدة التي تبقّت؛ لإنقاذ ابننا

كلا... هناك سبيل ناجعة، وأثبتت فعاليتها، واستعملها الأجداد كثيرا، بدل الاسبرنازا الدخيل، الذي لا يُعرف أصله ولا فصله، والذي سيجعلكم تمدّون أيديكم للناس!

وأين كنت طيلة هذه الأعوام الفائتة؟ حين كنّا نملك وقتا لتجريب وصفاتك السحرية!

أعلم أنّك تكرهينني... لكنني أحاول أن أنقذ ولدي، مثلك تماما.

لقد بدا جليّا أنّ أحقاد الماضي لا تفنى، وأنّ المسامحة ما هي إلّا إعادة ترتيب، بحيث يوضع الموقف المسامحُ عليه على دِكة الاحتياط، بانتظار موقف آخر غير محمود؛ فيبرز كِلا الموقفين معا كمنارة تهدي إلى شاطئ جزيرة، تسكنها المخلوقات الفتاكة.

توجهت جليلة الى عدنان، بُغية أن يطلب من والده عدم التدّخل في نضالهما للحصول على الدواء، وأن يكّف عن إشغالهما

بالمعارك الجانبية، التي تُخسرهم الوقت، ولا تقدّمهم إلى الحل. وجد عدنان نفسه في موقف صعب، حيث استصعب أن يطلب من والده عدم التدخل فقال: " عليك أن تفهمي يا جليلة أنّه يحاول أن يساعدنا، إنّي أتفهم أنّ طريقته القاسية لا تناسبك، لكن عليك أن تصبري قليلا".

" ما هو القرار الصحيح لأتخذه سبيلا، آه... يا ربي" قالها في سره ثم تنهدّ؛ فقد شعر عدنان أنّه بين مطرقة عظيمة كالسماء، تهوي على صدره المصلوب، على سندان الضياع. هاتف عدنان صديقه صفوان واستشاره. فقال صفوان:

من قال أنّك بحاجة لتختار قرارا صحيحا، يا عدنان!

ماذا تقصد؟ هل عليّ متعمدا أن أختار قرارا خاطئا؟

لا يا صديقي، ليس هذا ما قصدته! اسمع يا عدنان، هناك نوعان من القرارات المحمودة، قرار صحيح، وقرار صائب.

كيف تفرق بينها؛ فلطالما ظننت أنّهما نفس القرار!

كلا... يا عدنان، إنّهما ليسا نفس القرار. مم تخيّل يا عدنان أنّك تقود في شارع به اكتظاظ مروري سيُعيقك عن الوصول عدة ساعات. وهناك في المقابل، شارع يخلو من السيارات. إنّ اختيارك للشارع الأول هو اختيار صحيح؛ فسوف تصل الى وجهتك، لكنّ اختيارك للشارع الخالي، صائب؛ لأنّه لا يوصلك الى غايتك فقط، ولكن سيوصلك في الوقت المحدد أيضا. لذا ابحث يا صديقي، عن القرار الصائب.

هزّ عدنان رأسه، فقد فهم ما قصده صفوان، ثمّ أخبر صديقه أنّه فهم ما يقول، لكنّه قال في نفسه " مشكلتي ليست في الاختيار بين القرار الصحيح أو الصائب، مشكلتي عدم قدرتي على اتخاذ أية قرار". عندئذ سأل عدنان؟

لكن ما علاقة هذا بمشكلتي؟

إنّ ما تقوله جليلة صحيح، وما يقوله والدك أيضا صحيح، لكن عليك يا عدنان أن تبحث عن الصواب.

فعلا إذا ما فكّرنا في الأمر؛ فنرى دائما أنّ القرار يستند على حقيقة ثابتة، وينتج عن ذلك أنّ الخطأ يكونُ في اختيار الحقيقة الثابتة، وليس في القرار. ولذلك فإنّ اختلاف الناس يكونُ، بسبب اختلاف الحقائق المستند عليها. اسرح بخيالك معي قليلا، تخيّل أربعة بحارة على متن سفينة تغرق، حيث بدأت المياه تنحدر اليها انحدارا؛ فقام البحّار الأول بالقفز الى الماء، بسبب الحقيقة الدامغة أنّ السفينة تغرق، وأمّا البحّار الثاني فأمسك بكلتا يديه بقضيب من الفولاذ، لعلمه أنّهم قريبون من الشاطئ، وأنّ المساعدة تصل بوقت أقلّ من الوقت الذي تستغرقه السفينة للغرق التام. وأمّا الثالث فتشبث بالسفينة، بسبب علمه أنّ البحر ملئ بالقروش الفتاكة، وأمّا الرابع فقد كان يعلم أيضا بوجود القروش الفتاكة، لكنه لمح تسّربا من البترول، فتوقع انفجارا عظيما، وتأكّد أنّ احتمال نجاته بين القروش أكبرُ بكثير من بقائه على السفينة الذي أصبحت قنبلة موقوتة. كانت أمنية جميع البحارة لو أن أحدا كفاهم مؤونة تحديد الحقيقة الثابتة، التي ينتج عنها قرار صائب. لقد أتخذ البحارة قرارات

صحيحة قادتهم إلى حتفهم ولو أنّهم وصلوا الى قرار صائب لنجوا جميعا. وهنا أقترح أن نؤسس الجمعية العالمية العامة للحقائق الثابتة، التي تُعنى بنقل اهتماماتنا وعلاقتنا ببعضنا من صحيحة الى صائبة. وإني متأكد أنّ أول السعيدين بهذه الجمعية سيكون عدنان. لأنه في هذه اللحظة يتمنى لو كان باستطاعته اتخاذ قرار صائب أو صحيح أو حتى قرار خاطئ، فهو الآن في موضع لا يستطيع فيه أن يتخذ أية قرارات. فقد أحسّ أنّه مكّبل بيديه ورجليه.

توجه عدنان الى والده مصطفى؛ فإنّ خروجه من بيته، بعد كل هذه السنوات يوحي بالغرابة، لقد بدا عليه الكِبر، وقد امتلئ رأسه شيبا أكسبه مهابة، وهزل جسمه من طول الجلوس، وأصبح يعاني من آلام في الظهر والرقبة.

ما الذي أخرجك بعد كل هذه السنين يا ابي؟

إنّي أعلم يا عدنان عن كثرة الكلام حول مكوثي طيلة هذه الفترة منعزلا عن البشر؛ فإنّ الجهل بالأمر يعززُ الظنون،

لكن اسمع أنبّئك بما حدث؟ لقد رقدت أمّك في المشفى، أيامها الأخيرة، حينها كنت كالسيل الجارف، مشتتا، ولا أعي ما يحصل حولي:

لقد وعدتني ألاّ تتركينني أبدا

اسمع يا مصطفى، وعود الانسان تقتصر على ما يملك، ونحن لا نملك الموت والحياة، أريدك أن تعيش سعيدا.

العيش من دونك مستحيل. لدينا خطط لم ننفذها بعد، ولدينا غايات لم نصلها، أرجوك لا تتركيني. لا حياة من دونك، فلتنعدم أنفاسي بعدك.

بعد أن توفيت زوجته، دخل مصطفى إلى منزله، واعتزل الناس، ولم يكن يتمتع بطعام ولا شراب، ولا بمجالسة أحد. إنّ فقدان حبيبته على حين غرة أورثه صدمة، استغنى بعدها عن العالم

أعتقد يا أبي، أنّ ما فعلته كان صحيحا، ولكنه ليس صوابا!

أريدك أن تعلم أني الآن بجانبك، وأريدك أن تتأكّد أنّي لم أكره جليلة يوما.

(6)

النتيجة المرجوّة

الحياة مواسم، أوجدت بدايات ونهايات؛ لأجل ذلك تقام المراسم. موسم القرب يغيب؛ ليعقبه الفراق، وموسم الشغف يكتمل؛ ليبدأ الندم. وأنت بين المواسم عليك ألا تفقد السيطرة. عما قريب سنعود الى سابق عهدنا، ونستغرق حتى نشعر بالملل. في كل منّا حنين الى "العودة"، ولكل منّا عودته الخاصة، هل لأنّ زمن الماضي دائما أجمل؟ أم أنّ ذاكرتنا مختارة تنزع المنغصات؛ لتكسب الماضي هالة مضيئة؟ أم لعلّ النظر من بعيد يوحي بصورة غامضة، يسلبها الصفات الإنسانية؛ فتصبح مقدسة. إنّ الزمن عادل، يعطي لكل موجود حقه، متسعا من

الوقت، إنّه لا يستجيب لنصائحك ولا لتفضيلاتك. لكنه أيضا يحترم الجهد المبذول، ويدخله في الحسبة.

التاسع من اكتوبر2019، أصبح عدنان يواجه صعوبات جمّة في التعامل مع الأمور، فهو نفسه مريض، ولا يقوى على تذكر شيء؛ فكيف سيهتّم بابنه وعائلته؟ وحتى الآن لم يقم بخطوة تُذكر. كان نسيانه لتطور الأمور يقف حائلا دون ذلك، الأمر الذي جعلهم جميعا خائفين ومتشككين من قدرته على تولي الأمور، جلس عدنان مع والده العابس، شواربه المختلطة بين الأبيض والأسود تغطي شفته العليا، يمسك رأسه بكلتا يديه، يثبتها؛ لكيلا تدور مع الأرض، ثمّ نظر الى عدنان وقال:

عليك أن تترك جليلة تمضي في حالها!

صدم عدنان وتكلم باضطراب:

وأنت الذي تدّعي أنّك لا تكرهها، تنفي الشيء وتطلبه، لم أعهدك هكذا

ركّز يا عدنان، عليك الآن أن تعتمد عليّ وأن تثق بي. إنّك بهذه الحالة لا تستطيع أن تبُتّ في الأمور؛ لذلك بصفتي والدك، سأبتُّ عنك!

ألا ترى أنّك تبتّ فيما لا ترى ولا تشعر، وتحاول أن تبعدني عن أفضل شيء حصل لي في هذه الحياة!

وكيف تنوي أن تقرر وانت لا تتذكر ماذا أكلت على الفطور، قبل ساعة؟ ها... أخبرني!!

فتح عدنان مذكرته التي لخص فيها قراراته ومنهجه في التعامل، والبتّ في الأمور. كان مكتوبا فيه جملة " النتيجة المرجوة، هي العودة للحياة الطبيعية، واضعا ابني في حجري وواضعا رأسي مرتاحا على كتف زوجتي"، كانت الجملة محاطة بدائرة وتحتها خطين!

أترى، إنّي دائما آخذ قراراتي حسب هذه النتيجة المرجوة!

إنّ الأمور يا عدنان، ليست بهذه البساطة... إنّ النتيجة المرجوة فخ.

إنّ غايتي أن يشفى مصطفى، حتى لو كلفني ذلك الى بيع المنزل، أو حتى بيع أعضاء من جسدي.

عندئذ قال مصطفى:

إنّ الطريق الى النتيجة المرجوة، مليء بالفخوخ. إنّها أرض زلقة، كم من بشر، ساروا ولم يصلوا، بل قضوا فيها. إنّ العيش على هذه الأرض ليس بسيطا، إنّها مركبة؛ فالخير يؤدي الى شر، والشر يؤدي الى خير. إنّ من رحم الجفاء تأتي البشارة، وبعد البشارة، يأتي الانشغال والانصراف. لذلك فالبشارة، ذلك الشعور الجميل يكون بين شرين!"

لماذا تصّر على تحطيم الأمل الى قطع متناثرة. قال عدنان

افهم يا عدنان... ليس الأمل ما أحاول تحطيمه، إنّما أحاول أن أُخرجك من الفقاعة التي دخلتها منذ يوم الحادث!

ما أريده منك..أن تتركني وشأني، كما فعلت طيلة الأعوام الماضية.

طلب مصطفى من ابنه عدنان أن يرافقه الى ضريح والدته. وقد انضما الى صفوان الذي أراد أن يوصلهما الى المقبرة، وعند وصولهما كانت تنتظرهما هناك تمارا. شعر عدنان بالاستغراب الشديد لوجود تمارا، وقد أحسّ صفوان بنظرات عدنان المرتابة؛ فتوجه اليه قائلا: " لا تقلق إنّها تتابع أمورك منذ أن كنت عندها في المكتب!"

قبيل دخولهما الى المقبرة، توجهت تمارا الى عدنان وقالت:

اسمع يا عدنان، كثيرا ما نختار أن نفهم ما نريد، وننظر الى الجانب المريح. إنّ عقولنا تطمُر نفسها في الرمل، كما تفعل النعامة، معتقدين أن الخطر سيقفز فوق رؤوسنا. عليك أن تثق في ثلاثة أفراد حولك.

في هذه الأثناء فتح صفوان ومصطفى بوابة المقبرة المهترئة المربوطة بحبل بال، ثم دخلوا جميعا. رأى عدنان فراشة رمادية تطير بشكل متموج، لكنه لم يستغرب هذه المرة، بسبب المكان ثم جلس أمام قبر أمّه وتذكّر الأيام الخوالي، ودعا لها، ثم نظر حوله؛ فرأى والده يقف أمام قبر تربته ما زالت رطبة. فسأله:

قبرُ من هذا؟

ثم قرأ على شاهد القبر:

إنا لله وإنّا إليه راجعون

جليلة جمال

1988-2020

وقع عدنان مغشيا عليه على الأرض من هول الصدمة، ثم أخذ ينتحب، جلس والده بقربه وشرع هو أيضا بالبكاء وقال:

لقد كانت جليلة معك يوم الحادث، لكنّها لم تنج!

أحضر صفوان كيسا ورقيا بني اللون، نفخه وطلب من عدنان أن يتنفس من خلاله، تدخلت تمارا، وجلست أمام عدنان وقالت:

خُذ نفسا عميقا يا عدنان. اسمع... عليك أن تعلم أنّ النتيجة المرجوة هي محض خيال في راسك. إنّها غير واقعية، لكن لصعوبة المصاب، آثر عقلك ألاّ يتعامل مع الواقع؛ فلجأ الى الخيال.

(7)

الحكمة البالغة

قال عدنان" إنّي أتذكّر كل شيء يا جليلة، إنّني بخير، لكنني وحيد وأعاني من كآبة الشتاء". حين تحجب الغيوم الشمس، ويتسلل البرد الى مخِ العظام، تشعر بضآلة المادة، وبعمق اختراق الروح. قال عدنان " أترين يا جليلة هذه الذاكرة التي قاتلتُ من أجلها؟ حين استعدتُها، تلقّتني ببشارة الوداع، وأيّ وداعٍ يا روحي!". وهكذا بقي عدنان على هذه الحالة حتى ظنوا أنّه لن يثوب الى رشده، وأنّه سينعزل كما انعزل والده قبله!، على ما يبدو فإنّ الحزن يسري عبر الجينات الى الأبناء. هناك نوع من البشر، يكونون كالزيت الموجود في مفاصل الجسم، والذي

يساعد على الحركة بسلاسة ويخفف الإصابات، هؤلاء البشر نوع نادر، تعيش معهم في راحة وسكينة. جليلة كانت من هؤلاء. لكنّه قدر عدنان أن يُكمل مشواره بمفرده، لعلّ في ذلك حكمة تتجلى لنا في حينها! لعلّ قدر أصحاب المواهب أن يتجرعوا المآسي من دون تخفيف حتى يدخلوا، وهم سُكارى الى عوالم ما كانوا ليدخلوها وهم في وعيهم الطبيعي.

إذا فرضنا أنّ ألم الجسم هدفه التذكير بمشكلة طارئة؛ فما الحكمة من ألم الروح؟ وما أصعبها عند من يتذكر كل التفاصيل! كل شيء حوله يوحي إليه بتجربة ويذكّره بموقف، هل أضحت موهبته لعنة وعذابا؟ هل ستصبح ذاكرته الفذة، التي ميزته عن أقرانه سبيل هلاكه؟

دخل مصطفى الى ولده عدنان المنعزل في غرفته، كان مستلقيا على سريره، وأمام السرير مرآة كانت جليلة تجلس أمامها، وكان عدنان يتأملها

أعلم صعوبة ما مررت به، لكن عليك أن تستجمع قواك، فما زالت لديك مسؤوليات عليك القيام بها

ليست لدي رغبة في القيام بأي شيء!

عليك أن تعلم أنّك إن لم تخرج من العزلة بإرادتك؛ فستخرج بالقوة. اسمع يا عدنان، لقد ناضلت لأحافظ على انعزالي، لكن للقدر كان كلام آخر، إنّه يعرف جيدا كيف يخرجك من غرفتك. إنّ الحياة نضال والانعزال استسلام. والحياة تعرف كيف تجذب إليها المستسلمين.

كانت صورة الانعزال السلبية في ذهن عدنان كفيلة بإخراجه من غرفته. تناول الفطور مع والده، الذي جهّز مائدة متواضعة، أكل قليلا من اللبنة المدورة مع زيت الزيتون، وشرب الشاي بالنعنع، بعدها توجه مصطفى الى عدنان قائلا:

سوف يهاتفونك جماعة من راديو حيفا، يريدون إجراء مقابلة معك!

معي أنا؟ لماذا؟

بالنسبة لموضوع الدواء الأغلى في العالم الذي تسعى للحصول عليه

ليتركوني وشأني، لا أريد أي مقابلات!!

لم لا ... لعل الإعلام ينجح في إثارة اهتمام الناس؛ فنحصل على الدواء بسرعة

نحصل على الدواء! ماذا حدث؟ منذ متى تريد الحصول على الدواء؟ هل انتهت بذور الكتان؟

لا تستغرب، لقد قرأت عن المرض وعن الدواء. إنّ هذا الدواء يحتوي على الجينات الصحيحة لتعوّض الجينات المعطوبة.

فكّر عدنان في قدرة والده العجيبة، التي مكّنته من اعتزال مظاهر الحياة الاجتماعية وتساءل "إن كنت لا أستطيع أن أجلس وحدي بضعة أسابيع كيف استطاع أن يمكث عشرين

عاما؟ وكيف تحمل أن تضيع سنوات حياته بهذا الشكل المخيف! ألم يتبق له شيء يعيش من أجله؟ ولمن يدعي أنّ على الانسان، أن يذوق من نفس الكأس الذي ذاق منه الآخر، حتى يحكم في الأمور بعدل، أقول، لقد تجرعت من كأس الفقدان كما تجرّع هو، وما زلت حانقا على فعلته". قطع عدنان بصره المحدق في الفراغ، ثم نظر إلى والده قائلا:

ألم تكن لديك خطة مستقبلية تسعى لها أو حتى حلم تكمله حتى لو كنت وحدك!

الغرقى يا عدنان، منشغلون بمحاولة انتشال أنفسهم، فلا تسلهم عن خططهم المستقبلية، ولا عن أحلامهم. إنّ مستنقع العوَز مُهلك، ثم يأتي المارون؛ فيتعجبون ويقولون " ما بال هذا يلطخ نفسه بالوحل؟" إنّ الغريم مطموس المعالم، مبغوض من المعارف. نحن البشر نُتقن فن القضاء، كلّنا قضاة من دون تكليف، نُطلق الأحكام جزافا حسب الاهواء. لقد بات إحساسنا بالرضى

مبني على مشاهد التعاسة حولنا. أين اختفت الرحمة والرأفة؟ كثيرون يقاتلون للحصول على الدواء، وآخرون يناضلون للحصول على قوت يومهم.

شعر عدنان بجمال عبارة والده، ومنطقه وتعجب من الحكمة البالغة الجارية على لسانه. رأى مصطفى انبساطا في وجه ولده فقال:

إنّها ليست المرة التي أتكلم فيها بالحكمة، لكنّك كنت ترى نفسك حين تنظر إلي؛ فحجبك غضبك مني، عن الفهم، حتى شربت من نفس الكأس؛ ففهمت وعذرتني، وعندئذ فقط استطعت أن تسمعني!

وكيف استطعت أن تصل الى هذه الحكمة البالغة؟

كان الكتاب رفيقي في عزلتي، وكان التأمل والتفكر رياضتي، والتسبيح بالخالق طاقتي وحيويتي. اسمع إنّني

أعترف أنّي لا أستطيع أن آخذك الى الحق، لكنني وبكل تواضع أستطيع أن أريك الطريق، فسلني عما بدا لك.

تأمل عدنان صورة جليلة المعلقة على الحائط وفكّر" لقد سرقك الموت مني يا جليلة، فسرقتُ الذكريات منه؛ فلا أزيد عليها، ولا أنقص منها" كان عدنان يرى جليلة في كل مكان في البيت، ويتذكر كلامهما معا، يتحدث إليها وينصت لها، وقد وعدها أن يفعل المستحيل لعلاج ابنهما مصطفى.

في الحادي عشر من اكتوبر2019، توجّه عدنان إلى جمعية الأدوية اليتيمة، وبحوزته الشيك. دخل الى مقرها القائم قرب ميناء حيفا، أخذ يخطو في ردهة طويلة، على جانبيها صور معلقة لأشخاص، وهم يستلمون شهادات شكر وتقدير، وأربع رسائل شكر من المستفيدين من خدمات هذه الجمعية. استوقفته احدى هذه الرسائل فتمّعنها:

"نتقدم بالشكر الجزيل لدعمكم في شفاء ابننا صابر، أنتم المعجزة عند قلة الحيلة! شكر خاص الى مديرة الجمعية رسمية، على دعمها المتواصل لنا".

بتقدير وحب،

عائلة فؤاد.

كانت هذه الرسالة مطبوعة، ومحاطة ببرواز خشبي، لونه بنيٌ محروق. تقدم عدنان حتى دخل الى رسمية. كان مكتبها متواضع، وعليه الكثير من المعاملات المرصوفة بعضها فوق بعض، وحاسوب موضوع على ميل، لا يحجب وجه الداخل، أو الجالس. بشرتها بيضاء وفكها السفلي بارز وعيناها غائرتان، إنّ الانطباع الاولي غير مبشر، لكنّها ما إن تتكلم حتى تشعر أنّ روحها الجميلة تطغى، وكلامها المنمق يشعرك بالراحة.

أخيرا عثرتُ على الشيك يا رسمية!

أتفهم أنها فترة عصيبة على عائلتك يا عدنان، عليك ألا تفقد الأمل. قالتها ثم أظهرت إبتسامة خفيفة تبعث على السكون.

شكرا على دعمك، ماذا عن الشيك الجديد؟

اسمع يا عدنان، إنّ قوانين الجمعية تسمح بتقديم المساعدات للأطفال دون السنتين، وابنك مصطفى قد بلغ اليوم سنتين واثنا عشرة يوما، لقد فقد الأحقية!

ماذا؟ معقول! أنتِ تعلمين الظروف القاهرة التي مررنا بها مؤخرا. قالها بعيون جاحظة من هول الصدمة.

أعلم... أعلم! إنّ هذا الدواء أغلى دواء على هذه الأرض، ونحن محدودون في الميزانية، آسفة يا عدنان، أنا متأكدة أنك ستعثر على وسيلة اخرى. فتحت كفي يديها لتُري قلة حيلتها.

بسبب اثني عشرة يوما، ستتركون ابني يواجه مصيره المحتوم؟ ما هذه القسوة؟ وحرّك رأسه يمنة ويسرة بتواصل.

عليك أن تفهم أن الأمر ليس شخصيا، لكن إن أعطيناك الشيك الآن؛ فإننا سنسلبه من طفل آخر.

تملّك عدنان غضب لم يعرفه مسبقا، أحسّ أنّه موشك على الانهيار، أو الانفجار، انتفخ وجهه بالدم، وحاول أن يكتم ذلك، لكنه كان كمن يمسك جمرا في يديه فصاح:

ماذا لو كان ابنك، أكنت ستحرمينه من الحياة بهذا الشكل؟

أحسّ عدنان أنّ البروتوكولات المعقدة، التي وُجدت لتسهل المعاملات، أضحت هي الغاية المنشودة، وحلّت الآلية مكان الآلة فقال:

كيف ستتعايشين مع قتلك لطفل بريء... اقسم إنّي

سأقاضيك، إن حدث له مكروه

حافظت رسمية على هدوئها واتزانها وقالت:

إنّي اتفهم أنّك غاضب جدا، لأنك في مشكلة عصية.

انطلق عدنان من لحظتها، بعد أن تيقّن من استحالة إقناع رسمية؛ بسبب تشبثها بقوانين الجمعية الصماء، وراح يهرول في الممر خارجا، عندئذ لمح برواز عائلة فؤاد عن يمينه؛ فأحسّ بغيرة، وشعر بقلة حظه، بعد أن تواطأت عليه الدنيا بمن فيها. أحسّ بمخه يغرق وعاد الى بيته حزينا، لا يدري ماذا يفعل؟ ولا إلى أين يتجه؟

دخل عدنان الى بيته، فوجد والده يجلس مع حفيده واضعا كفه على جبينه، ويذرف الدموع على حاله، فقد كان رقيق القلب، تنهمر دمعته بسهولة، وحين علم ما حدث مع عدنان، توجه اليه بعد أن مسح دموعه قائلا:

لا تقلق يا ولدي، فلكلّ مشكلة في هذا العالم حلّ في مكان ما. عليك أن تفهم أن الإعاقة التي تراها عيبا، ضرورية جدا في حياة الناس، وإنّي الآن ومن دون جهد أستطيع أن أُعُدّ لك عشرات الحسنات لها. على سبيل المثال، إنّ الإعاقة تُفهم الإنسان أن القدرة نعمة عظيمة، والصحة نعمة جليلة

لا أحد يعتبر اليوم... كل مشغول بما بين يديه. إذ لو اعتبر الناس لرايتهم يهّبون للمساعدة... لكن لا أحد يهتم... لا أحد!

(8)

فنّ المقايضة الصحيحة

أظهرت أزهار التوليب في حديقتهم الصغيرة أعيُنها، تتفقد المكان، وتستطلع الأجواء، وحين تكتسب الثقة ستُظهر جسدها العاري أمام الجميع، وستكون محط الأنظار لعدة أسابيع قادمة. كانت الأزهار تنمو ببطء، تخجل أن تظهر جمالها في مكان يحفه الموت، وإنّي على ثقة أنّها لو كانت مخيرة، لما أظهرت جمالها إلا لمن يقدّم المساعدة، في إعادة الحياة الى هذا البيت.

في اليوم التالي عاد عدنان الى منزله يقود سيارة فضية اللون، صنعت سنة 2008. تفاجأ والده مما رأى:

لمن هذه السيارة يا عدنان!

لي ..لقد اشتريتها.

غضب مصطفى غضبا شديدا وحاول امتلاك أعصابه:

أترى هذا الوقت مناسبا؛ لاقتناء الأشياء!

ومتى كان الوقت مناسبا؟ قال باستهزاء.

دخلوا الى البيت، لكنّ مصطفى لم يهدأ، بل صعّد الأمر

ما قلة المسئولية هذه؟ أليست قضية ابنك أهمّ، فهو بحاجة لكل فلس!

أنت لا تساعد! أنت فقط تثير غضبي.

وجب عليك ألاّ تحيد عن الصّواب. لقد كُتب عليك أن تهِب نفسك للحلّ، حتى تحصل عليه

غضب عدنان غضبا شديدا فأخذ علبة الكاز السائل التي تُستعمل لإشعال الفحم، وسكبها على السيارة، وأشعلها، ثم أخذ يُراقبها تحترق، وبدأ الجيران يهرولون ويصيحون " أحضروا

الماء... أحضروا الماء" وحاولوا أن يطفئوا النيران، وفشلوا، حتى أصبحت السيارة فحمة سوداء. حزن مصطفى على ما حدث حزنا شديدا، فحضن ولده واعتذر عما بدر منه، وطلب منه أن يفهم وجهة نظره في غضبه.

في المساء، قدِم صفوان، ودخل الى عدنان، الذي يجلس وحده في غرفته. كان صفوان مدربا للتنمية البشرية. وعندما فهم قضية السيارة توجه الى مصطفى وقال:

يا عمي مصطفى، إنّ الإنجازات الكبيرة تبدأ بإنجاز صغير، ألا ترى أنّ الخطوة تأتي بعد الخطوة، وأنّ الفعالية أفضل من الجلوس متكتفا، ولعل السيارة التي اقتناها تكون دافعا له ليُقدم على إنجازات أكبر. إنّي أرى أنّك أخطأت في غضبك!

عليه أن يكون قويا، والقوة تأتي بعد الحسم وعليه أن يصبّ كل طاقته في غاية واحدة الآن وهي انقاذ ابنه. إنّ ما

تقوله صحيح، إن كان يملك ألف عام كاملة، لكنه لا يملك سوى عدة أيام.

أتدري لم صنعت السيارات! لتختزل الوقت... لعلّ شراء عدنان للسيارة كان لإحساسه بضرورة اختزال الوقت، عموما إنّ شراء الأشياء يدل على اهتمام، والاهتمام يفتح آفاقا، أكثر بكثير من الغضب. وإنّ الحسم الذي تريده منه، لن يؤدي الى قوة بل الى شدة، لن تزول إلا بالانهيار العصبي.

بل إنّ الحسم، سيؤدي إلى سكينة للنفس، وإبصار للمعضلة، وقتال لحلها، وإعداد كبير وإنّ شراء الأشياء ما هو إلا إلهاء وتضييع للوقت.

كان جليّا أنّهما لن يصلا الى توافق؛ فهُم كقطبين متوازيين، وحين سمع عدنان جدالهما خرج من فوره وقال:

أتعلمون... حين فقدت ذاكرتي، صرت بلا ملامح شخصية، يوجهني هذا، ويؤمرني ذاك. أمّا الآن وقد استرددت ذاكرتي فإني أحتفظ بحقي في التصرف لما أراه صوابا، وهذا أمر لن تفهماه، لأنكم لم تجربوا فقدان الذاكرة يوما.

ثم عاد الى غرفته؛ فلحقه صفوان.

كان صفوان يجول البلاد ويقدم المحاضرات، كخبير تنمية، حيث نجح دائما بكلمات بسيطة في تحفيز وتشجيع صديقه. كان يقصُّ عليه قصصا كثيرة، تكشف عن حكمة معينة، أو مغزى معين. لكن يلزم الحذر هنا! ففي كثير من الأحيان يكون التحفيز تخديرا موضعيا، ما يلبث أن يزول. والتشجيع في عدة حالات كمن يغري مياه النهر بسعة المحيط، التي ما تلبث أن تتبخر عند السد المنيع. قال صفوان لعدنان:

لم لا تستخدم موهبتك في شيء ما يا عدنان؟

وفي أي مجال يمكن استخدام الذاكرة القوية، غير استحضار الذكريات المؤلمة. قالها بحسرة

عليك أن تفكّر خارج الصندوق!

كان عدنان متكّئا فجلس:

إنّ تحديات الحياة يا صديقي، كصعود قمة كلمنجارو الثلجية، عاريا، لا تترك مجالا للتفكير ولا قدرة على التأمل.

لكل منا تحدياته، عليك أن تتلقاها بالصبر والثبات.

الموهبة يا صفوان، طريق فرعي غير ممهد؛ لتصل إليه عليك أن تجنح عن الطريق العام، فإذا جنحت، أنكّروا عليك، فيصيبك الضّر جرّاء ذلك، وعندئذ تلجأ الى البديل، وهو الخسران بعينه.

أمسك صفوان لحيته الخفيفة بكفة يده اليمنى، وقال

أنت مخطئ يا عدنان، لم لا تقول، إنّك إن جنحت وسعيت، تألقت، وكلّما تقدمت استحققت عن جدارة، أن تصل لما تريد. اسمع يا عدنان أنت إنسان طيب، والطيبون سيجدون دوما الطريق!

ابتسم عدنان وقال:

أنت تقول ذلك؛ لأني نزلت معك عن الجبل عند إصابتك!

ليس هذا فقط. اسمع، عليك أن تعلم أنّك حين تصل للإنجاز، سيُقدّر الناس موهبتك؛ فالناس تجذبهم الإنجازات.

نادى مصطفى عدنان وصفوان، لينضمّا إليه على العشاء، حيث كان قد جهّز طبقا لذيذا من المجدّرة الشامية، بجانبها الفجل والبصل، وكان الدخان ما زال ينتشر من الأطباق في منظر يفتح الشهية، فقال صفوان:

أووو... لم أكُن أعلم أنّك تتقن الطبخ يا عم مصطفى!

جرّبوا الأكلات الحقيقية، بدل الوجبات السريعة المليئة بالسموم.

بينما هُم يأكلون، التفت مصطفى الى صفوان وسأله:

لماذا لم تتزوج بعد؟ بناتُ الحلال كثر!

فأجابه عدنان:

أُتركه ليواصل عمله في تحفيز المتزوجين؛ لأنّه إذا تزوج سيحتاج حينها لمن يحفّزه

ضحكوا جميعا، لكنّ صفوان كان لديه رأي آخر، فقال:

اعذراني على وقاحتي، لكن كل زواج ينتهي بالفراق والألم.

توقف صفوان عن الكلام فجأة، حيث أحسّ انّه وقع في فخ الكلمات، وقد شعر أنّ كلامه بهذا التوقيت بالذات، غير لائق. كره نفسه على ذلك، لأنه بشكل عام يفكر فيما سيقوله، قبل أن يقوله، لكنه هذه المرة شذّ عن القاعدة. نظر إليه عدنان ثم قال:

أتعلم، مهما بلغ الألم، إلا أنّه أفضل من ملل الوحدة

أراد صفوان ان يخفف وطأة، وحدة الكلام فقال:

أنا شخصيا مستعد أن أتزوج من قبيلة الموسو، تلك القبيلة التي تعيش على سفوح جبال الهملايا!

ولماذا كلّ هذا البعد؟ قال مصطفى بتعجب

هذه القبيلة تحكمها النساء، لا مسؤوليات تقع على عاتق الذكور، ولا مودة ولا حب، قال صفوان

ماذا يحدث إذا هرم أحدهم؟ هل هناك من يقوم بمساعدته؟ ومن يربّي الأطفال؟ إنّ المسؤوليات تأتي مع تقدم الزمن، هذه سنة الحياة. قال عدنان باستغراب!

إنّك لا تحب العيش الرغيد يا عدنان، هل تأتي معي عمي مصطفى؟ قال صفوان مازحا!

آتي معك لأتأمل الطبيعة الخلابة هناك، فقد عزفت عن الحب. قالها ثمّ ضحك مصطفى بصوت مرتفع.

إنّ نجاح صفوان في مجال التنمية البشرية، لا يعني أنه ناجح في كل المجالات. إنّ الوصول للهدف يعمل على منطق المقايضة؛ فإن أردت شيئا عليك أن تتخلى عن شيء مقابله. إنّ الناجحين هم مختصو المقايضة، وإنّ السعادة تكمُن في فقه المقايضة الصحيحة. كان والد صفوان يعمل كل أيامه، وأغلب ساعات يومه، كان همه الوحيد جمعُ المال، حيث ظن أنه بذلك سيحوز قمة السعادة، استطاع أن يصل للثراء، لكنه ضحّى بعلاقته مع زوجته التي أحست بإهماله لها، حتى أنها طلبت الطلاق، وهكذا افترق والدا صفوان. أثّر ذلك على صفوان تأثيرا بليغا، حتى عزف عن الزواج. إنّ الحياة الطبيعية هي الاعتدال في المقايضة. لكن بما أنّ الموهوبون سيصلون لاكتشاف، يعتبر غير طبيعيّ، كونه غير متاح للجميع؛ فإنّ الاعتدال غير صحيح في حالتهم.

قال مصطفى يخاطبهم:

إنّ التفكير في العواقب، يؤدي للعمل على الاكتفاء، من غير زيغ ولا مبالغة. ذلك أنّ ميول النفوس وحُبّها، كالسيل الجارف، ونقض الميول يتمُّ بالتفكير في العواقب.

بيد أنّ لصفوانَ رأي آخر:

إنّ الناس الذين يفكّرون في العواقب، يتملكهم الخوف؛ فيُحجمون عن اتخاذ المبادرات، فلا يصلون إلى إنجاز يُذكر!

عندئذ نظر عدنان إليهم وأجاب:

حين رقدت في المشفى، بعد أن فقدتُ ذاكرتي التقدمية، رأيت صنفين من الناس، قسمٌ آثر النضال، وقسمٌ آثر الاستسلام. عندئذ فكّرت بماذا يتعلق الاختيار بين هذا وذاك؟ فخلصت إلى أنّ الخوف، هو الذي يحرِك الناس. أذكر مريضا، كان يخافُ من حالة زوجته المريضة؛ فلم يتقبلها، ثمّ لمّا خاف عليها من الإهمال، تقبّل حالتها،

ووقف إلى جانبها. ورأيت مريضا كان يخافُ أن يعيش؛

فكان ينتظر الموت.

في المساء توجه مصطفى الى عدنان وسأله:

ماذا تنوي أن تفعل في مسالة الدواء؟

لا أدري، أشعر أنّ كلّ الأبواب، مغلقة في وجهي. قال بحزن

لم لا تجري المقابلة مع راديو حيفا، لعلّ ذلك يُظهر لنا

أبوابا لا نراها!

اقتنع عدنان بعد إلحاح والده، وبعد أن استسلم للحقيقة التي تقول أنّه لن يستطيع، أن يصل للحل لوحده.

(9)

الفرصة الذهبية

بدأ البثُّ، أهلا وسهلا بكم، معكم سميح ناجي خلف الميكروفون، وحلقة جديدة من برنامج " قضايا" نحن معكم ومن أجلكم، نستضيف اليوم من مدينة حيفا، السيد عدنان:

حدّثنا عن مشكلتك يا عدنان؟

ولدي مصطفى يعاني من مرض نادر يؤدي لضمور العضلات، والموت المبكر، وهو بحاجة لدواء جديد، باهض الثمن!

لقد علمنا من مصادرنا، أنّ زوجتك توفيت في حادث طرق، حدّثنا كيف حدث هذا؟

استشاط عدنان غضبا، فهو لم يأت ليتحدث عن وفاة زوجته، فقال:

لا أستطيع أن أواصل... أنا آسف!

عندئذ خاطب سميح المستمعين قائلا: " مستمعينا الكرام، فاصل إعلاني ونعود". ثم نظر الى عدنان بامتعاض:

ما بك تضيع فرصة ذهبية، من بين يديك!

لم يكن الموضوع ... زوجتي المتوفاة. قال باستغراب!

أتدري كم من المقابلات، أجريتها لآباء يبحثون عن علاج لأبنائهم. إنّ هذا الموضوع مستهلك جدا، لكن إذا دمجناه مع قصة وفاة زوجتك؛ فستكون أكثر تميزا، وستكون أكثر تأثيرا على الناس. لا تقلق يا عدنان، جاريني في أسئلتي، وسأجعل الناس يتحدثون بقصتك في كل مكان!

لم علينا أن نستجدي قلوب الناس بالألم والدموع، قال بحسرة.

لطالما كانت الدموع هي مؤشر المصداقية؛ فلا تحمّل نفسك فوق طاقتها!

أنا آسف لا أستطيع، لا أستطيع أن استميل الناس بالذلّ.

وقف عدنان وخرج من دون التفات، ولا استجابة لنداء سميح، الذي أحسّ أنّه في مأزق بسبب إكمال برنامجه من دون قصة. عاد عدنان الى منزله محتقن الوجه، وتوجه إلى ابنه مصطفى وحضنه وقال:

آسف يا ولدي، أنّي لم أستطع توفير الدواء لك، لكنني أعدك أنني سأجد حلا.

دخل مصطفى إليه، ونظرات العتاب ظاهرة على وجهه:

ألم تستطع أن تُكمل المقابلة. قليل من الصبر فقط، كان كلّ ما تحتاجه!

لست في مزاج يسمح لي في الجدال. قالها وقلبه يكاد ينفطر.

في المساء، خرج عدنان ليلتقي بأصدقائه، محاولا الترويح والترفيه عن نفسه. لقد كان يخرج كثيرا في الماضي، لكن مشاكل الحياة أنستهُ السمر والسهر، وتجاذب أطراف الحديث مع الأصحاب. التقوا كعادتهم في كفتيريا (ليالي الشام) يدخّنون النرجيلة، ويشربون الشاي بالنعنع، حتى ساعات الصباح. كانوا أربعة، يجلسون حول طاولة مستطيلة، والمكان يعجّ بالدخان، الذي يمنعك من رؤية تفاصيل الوجوه، وأصوات فقاقيع الماء التي تبعث على الراحة، في سيمفونية الاختفاء بين الضباب، وفتى الجمر يلفّ الطاولات، يأجج النيران الخامدة بسعادة.

بالإضافة لعدنان وصفوان، كان هناك صاحبهم سالم عبد الحميد، صاحب شركة نيسان للسياحة والسفر، ونيسان كان اسمُ ابنته الكبرى، كان جميل الهندام يلبس دائما ثيابا رسمية، حيث قدِم اليهم بقميص أبيض مكوي بمهارة. أمّا رابعهم، فقد كان بدر هاني، صاحبهم أبو الابتسامة، خفيف الظل، كلامه كلّه دعابات، تحسدهم عليه كل الطاولات حولهم، بسبب نكاته التي

لا تنضب، وكثيرا ما كانوا يسترقون السمع فيشاركونهم بالضحك.

إذا احتجت أية شيء فلا تخجل من الطلب! نحن أخوة. قال سالم موجها كلامه لعدنان.

لم يقتنع عدنان بكلامه، ولم يشك للحظة أنّه كاذب فيما يقول، إنّما هذه عادته يتفاخر ويتكبر عند كل فرصة. وبما أن التفاخر في حقيقته خداع، فقد كان عدنان يلقّبه بشيخ المخادعين، غير أنّ صفوان وبدر، لا يكفان عن الطلب من عدنان تخفيف حدة التوتر، كونهم يرون في سالم رجلا ساذجا، لا ينوي شرا.

توجه بدر الى سالم مازحا:

إن أردت أن تساعده؛ فأرسله عدة أيام الى جزيرة سيشيل. أعتقد أنه إن ذهب إلى هناك؛ فلن يعود.

فقال سالم مستهجنا:

والله حتى لو ذهب الى الجنة؛ فلن ينعم. إذ كيف ينعم بذاكرة كهذه. إنّ الإنسان الذي لا ينسى، يعيشُ في جحيم أينما حلّ!

تدخّل صفوان لاحتواء الموقف:

يا شباب! غيّروا الموضوع. لا أدري لماذا تصلون دائما الى نفس الجدال القطبي؟

عندئذ قال عدنان بغضب:

أنا أقول لك لماذا نصل الى نفس الجدال؟ لأن الألسُن تفضح القلوب الحاقدة. سئمت من كلامه الخبيث، ومن اعتقاده أنّ كلّ ما يفعله، هو الصواب، والناس حوله أغبياء

وهل ما تفعله أنت هو الصواب؟ لماذا لم تُكمل تعليمك الجامعي، في كلية الهندسة؟ هل ترى هذا صوابا؟ قال سالم

قال صفوان مدافعا عن عدنان:

النجاحُ والفشل يا أخي يكون حسب أهداف، تضعها أنت بذاتك، أمام نفسك، وليست صحيحة بالضرورة لباقي الناس، لعلّ ما فعله، هو الصواب في عينه!

ثم أضاف عدنان:

اتركهُ لن يفهم ما تقول، فمنذ أن عرفته، لم يغيّر فكرة في رأسه، ولم يتعلم شيئا جديدا، وقد بنى سدا عظيما، بينه وبين نهر العلم المتدفق.

سئم بدر من حديثهم فقال بغضب:

ما بكم كالديوك المتناحرة على كومة قش، لن تزدهم في أملاكهم شيئا يُذكر. اسمعوني جيدا كان هناك مهرج يضحك الناس بشكل هستيري، لكنّه كان حزين جدا، أتعلمون كيف استطاع أن يضحك الناس وهو حزين؟

نظروا إليه جميعا باستغراب، وقال صفوان:

لماذا؟ أنا شخصيا لا أعلم

فقال بدر:

وأنا كذلك، لا أعلم فقلت أسألكم، لعلكم تعلمون!

ضحكوا جميعا، حتى كاد عدنان يختنق من رشفة الشاي، وقال لسالم:

لقد أخذتك على محمل الجدّ، للحظة.

(10)

آلة تحقيق الأحلام

الرابع عشر من أكتوبر، صعد عدنان الى باص 24، في طريقه الى مستشفى الكرمل، حيث يرقد ابنه مصطفى، بعد التدهور الذي طرأ عليه. كان الباص يعجّ بالركاب مما أدّى بعدنان الى الوقوف، في وسطه مع الواقفين، كانت رائحة العرق تملأ المكان، المكتظ المغلق، في يوم شديد البرودة. إنّ شوارع حيفا ذات المنعطفات الكثيرة، جعلته يتشبث بقوة. ثم ما لبث أن جلس في المقعد الوحيد، الذي أخلي منذ ثانية؛ فجلس وظهره لجهة السائق، مما جعله يشعر بالدوار، لكنّه أفضلُ من الوقوف كلّ الطريق. أخذ عدنان يتأمل كلّ من حوله. نظر عدنان إلى شخص يرتدي

قميصا أبيض، مخططا باللون البني، ويضع نظارات شمسية سوداء، مدوّرة كبيرة، ويحضن حقيبة سوداء بإحكام، تساءل عدنان: " ماذا يوجد في الحقيبة، حتى يُمسكها بهذه القوة؟ " ثمّ سرح في خياله " ماذا لو كانت آلة لتحقيق الأحلام؟" وباعتبار أنها فرصة لا تفوت قام يفاوضه لاستعمال هذه الآلة، وانضم اليه في ذلك جميع الركاب، إذ قالوا أنّها وسيلة سهلة ومختصرة للوصول إلى المُراد. وافق صاحب الحقيبة السوداء على مضض، بعد أن وضع شرطا واحدا، حيث طلب من كل راكب أن يطلب أمنية واحدة فقط! وأخذ يعطي الركاب الحقيبة واحدا تلو الآخر، والغريب في الأمر أنّ أحلامهم كانت تتحقق على الفور. أحسّ عدنان، بضغط شديد فقد طُلب منه، أن يختار حُلما واحدا في وقت قليل. ماذا عليه أن يختار؟ هل يختار شفاء ابنه من هذا الداء المقيت؟ أم يختار أن ترجع زوجته للحياة؟ أم يحصل على المال الكافي لشراء الدواء وزيادة يعيش به عيشا رغيدا! فجأة تسّرب الضبابُ الى الباص، ما لبث الركاب أن أفاقوا على صوتِ المعاول، تأمّلوا حولهم؛ حيث تحوّلوا لعمال، يحملون المعاول

في منجم كيمبرلي، لاستخراج الماس الخام في جنوب افريقيا. اتضّح أن حلم أحد الركاب، كان الحصول على كنز طائل من الماس. ثم تبدّل المشهد بعد أن لّف الضباب جميع المقاعد، رأى عدنان نفسه ميتا مع جميع الرجال في العالم؛ فاتضح أنّ حلم احدى الراكبات، أن يموت جميع الرجال في العالم. أفاق عدنان من خياله هلعا؛ فنظر الى الركاب فرأى صاحب القميص المخطط، ما زال يحضن آلة تحقيق الأحلام؛ فاطمئن، لأنه إذا انتظر دوره في تحقيق حلمه، فلن يكون على قيد الحياة. عندئذ فهم عدنان كم نحن مترابطين في احلامنا؛ فإنّ الواحد منا بحاجة للكثيرين من أجل تحقيق حلمه، وفهم أنّ من الأحلام ما تكون شقاء للكثيرين. وفعلا إنّ لكلّ من الركاب، غاية تخصه إلا أنّ مصيرهم مشترك، كونهم على نفس الباص! كانت تجلس أمام عدنان مباشرة عجوز عابسة الوجه، تغطي شعرها الأبيض بمنديل أزرق غامق، من عينها اليمنى ينبع دجلة، ومن عينها اليسار ينبع الفرات، يشقّان طريقهما، حتى يصبّا عند شفتها العليا مباشرة الى ثغرها المهترئ، وما بين النهرين، أنف كتربة

أرض جدباء، بها من الكبرياء ما يجعلها ترفض الماء المنسكب عليها، فتجريه في أخاديد. كانت نظراتها الحادة تراقب كل شيء يتحرك، وكأن عيونها جنة مفقودة تتهافت عليها الجفون، وتغطيها الحواجب، رفعت كفها الأيمن، ومسحت غرّتها البيضاء، مما يعيد الى الذاكرة زمن الانضباط الجميل، وأوثقت ربطة المنديل على عنقها بقوة، لو فعلتها في شباب هذه الأيام، لأوقعتهم جثة هامدة. خطّ حياتها يمتد من كف يدها اليسرى حتى جبينها. نظرت من نافذة الباص؛ فأبصرت رجلا يراقب ابنه الذي يقود دراجته باعوجاج؛ فحدقت به بلا أية تغير في ملامحها. حاول عدنان جاهدا أن يبحث عن تغير في انقباض عضلاتها أو انبساطها لكنه عبثا حاول؛ فلم تُظهر أية تفاعل غير تحديقها. عندئذ تمنى عدنان لو يستطيع قراءة الأفكار، وفكّر في كم سيكون مشبعا، ومرضيا لو تمكّن من ذلك!

استجمع عدنان تركيزه، ثمّ ضغط على الجرس لتنبيه سائق الباص، ونزل من الباص في مركز الكرمل، ثمّ مشى حتى وصل الى المشفى، وتوجه مباشرة إلى قسم الأطفال، حيث كان والده

وولده هناك. حضن عدنان ولده بقوة، ثم توجه الى الطبيب المعالج الدكتور فوزي الجندي:

أهلا ... أنت والد مصطفى

نعم صحيح

إنّ حالته في تدهور مستمر ... وإنه سوف يموت!

رجع الى ولده فسأله مصطفى:

ماذا قال الطبيب يا عدنان؟

إنّ مصطفى سيموت، قالها بهمس

يا للوقاحة... يتكلمون عن الموت وكأنّه شربة ماء ... علماء بالأجساد، جهلاء بالأرواح. ثم تمتم بكلام لا يُفهم.

كان عدنان مضطربا جدا؛ فهاتف صاحبه سالم طالبا منه، استخدام قاعدته الشعبية الكبيرة على مواقع التواصل الاجتماعي، بحُكم عمله، بُغية البحث عن حلّ عاجل، حيث طلب

منه أن ينشر إعلانا، لكنّ طلبه قوبل بالرفض، حيث ادّعى سالم أنّ ذلك قد يستعمل ذريعة ضده، وأنّه إن فتح باب النشر الشخصي؛ فإنّ صفحته سوف تتحول الى صفحة إعلانات، فقال لعدنان:

يا صاحبي، تعلم أنّ العادة قد تصبح حقا مع الزمن، وإنّي أخاف أن ينتبه عمّالي، في الشركة الى ذلك؛ فيطلبونه مني بحجة أنّي قد فتحتُ لك باب الإعلانات. إني خجل منك يا صاحبي، لكن أطلب أيّ شيء غير هذا، وأعدك أنّي سأفعل المستحيل.

حينها، امتزجت مشاعر عدنان ما بين الضيق والرضى. الشعور بالضيق، بسبب الخيبة التي عاد بها، الأمر الذي أعطاه الشجاعة؛ ليقرر قطع علاقته مع صاحبه، الذي لم يجتهد في الوقوف معه عند الحاجة. وأمّا الرضى؛ فبسبب رهانه مع نفسه مسبقا، بفشل صاحبه عند الاختبار الأول، وقد كان.

قال عدنان ردا على سالم:

أتخاف من العادة أن تصبح حقا، لكنك نسيت أنّ الصّداقة حق واضح، لا يختلف في ذلك اثنان. لا تكلّمني، أبدا ما حييت.

قال مصطفى معلّقا على موقف سالم:

إنّ الصّداقة لا تحتاج دبلوماسية، ولا تحتاج أن تفعل المستحيل، لكن أهمّ دعامة في الصداقة، هي الإحساس بأن صديقك يفعل كل ما يستطيع عند حاجتك إليه، وإلا فلا تضع وقتك معه!

على الفور هاتف عدنان صديقة صفوان، وقصّ عليه ما حدث، ثم سأله:

هل تعرف محاميا كفؤا؟

ماذا تنوي أن تفعل، يا عدنان؟

سوف أقاضي رسمية، مديرة جمعية " الأدوية اليتيمة".

ذهب صفوان وسالم الى عدنان واجتمعا به في ساحة المشفى.

لم يردّ عدنان تحية سالم فقال صفوان:

أصدقائي... لكلّ واحد منا وجهة نظر، قد تكون صحيحة، وقد تكون خاطئة لكن ذلك لا يعني أن يتخلى أحدنا عن الآخر بهذه السهولة.

عندئذ قال عدنان:

الحق واحد يا صفوان مهما اختلفت وجهات النظر، إنّي أتفهم رغبتك في التقريب بيننا، لكن عبثا تحاول؛ فلن تستطيع الجمع بين المشرق والمغرب، في مكان واحد.

توجه اليه سالم قائلا:

الحق واحد وأنت تظن أنه يقف معك. للأسف ليست لديك خبرة في الإدارة مع ذلك تدعي أنّك فهمتني وتلومني على ذلك.

التفت صفوان الى عدنان وقال:

إنّ الضرر الذي لحق بك، أدّى الى أن تعارض الأمور المتعارف عليها اضطرارا، لكنك مخطئ في الغاء الآخر، وإقصائه.

ثم التفت الى سالم وقال:

أعتقد أنّ مساعدته هي العدل، وكان عليك أن تكون متفهما لحاجته.

سلّموا على بعضهم نزولا عند طلب صفوان إلا أنّ عدنان، رفض اقتراح سالم بنشر الإعلان، بحجة أنّه لم يعد نافعا، وادّعائه بأنّ لديه حلاّ أفضل.

توجه عدنان وصفوان الى مكتب المحامي بشير الخيزران، القائم في شارع ابن المقفع في الهادار. دخلوا عليه، سلّموا بالأيدي ثم جلسوا. كانت طاولة مكتبه مليئة بالملفات والقراطيس، مرتبة بحيث لا تشذّ عنه أية ورقة، والى جانب كومة الملفات، وُضع ميزان معدني مطلي بالأسود. قصّ عليه عدنان قصته، من

البداية عند فقدانه للذاكرة، حتى سُحبت منه الأحقية في الحصول على الدواء. استمع إليه بشير بتلهف حتى فرغ. كان بشير يرتدي قميصا أبيض مكوي بمهنية بالغة، لا تجد فيه طيّات مهما طال جلوسه، تعلوه ياقة سوداء، تنزل كالسيف حتى أسفل البطن. كان يضع نظارات شمسية فرفعها على جبينه وثبتها بشعره الأجعد!

إنّ القانون في صالحنا ... خاصة وأن ما مررت به كان أمرا خارجا عن إرادتك. سوف نُقدم شكوى؛ لإجبارهم على إعادة ما سُلب منك.

في البداية تشجعوا لأقواله، وتنفسوا الصعداء، ارتياحا لكلامه. لكنهم ما لبثوا أن انتبهوا لشيء، قد غاب عن بالهم. ذلك أنّ البتّ في مثل هذه الشكاوى، سيأخذ سنوات عدة، وهو قطعا لا يملك هذا الوقت. حدّق عدنان في الميزان الأسود، ثم رفع عينيه حتى استقرت في عيني بشير وقال:

ألا توجد طريق مختصرة، للبتّ العاجل في هكذا مسائل.

إنّها مسألة حياة، أو موت!

كل القضايا عاجلة يا عدنان... للأسف لا توجد طرق مختصرة في القانون. الحالة الوحيدة التي يُبّت بها بسرعة قصوى، هي عند تواجد خطورة للجاني على المجتمع المحيط به، الأمر الذي لا يتوفر في قضيتك!

نظر عدنان الى صفوان، الذي لم يدر بما يجيب. ثم نظر مرة أخرى الى بشير وطلب منه أن يباشر في المعاملات اللازمة، لتبدأ المحاكمة. كان إمضاء عدنان على التوكيل أشبه بتخطيط قلب هلع، حيث ظهر فيه النبض عشوائيا.

(11)

البنك القومي

قرابة الساعة الخامسة من ذلك اليوم، تلقّى صفوان مكالمة من مصطفى، يطلب منه الحضور بصورة طارئة، وحين قدم إليه؛ طلب منه مصطفى أن يرافقه إلى مركز الشرطة، لأنّ عدنان قد حُجز هناك! عندئذ أتصل صفوان بالمحامي بشير، الذي قال أنّه سيوافيهم عند مركز الشرطة. في طريقهم الى هناك أدار صفوان عجلة المذياع، بإبهامه وسبابته، واكتفى بتثبيت المِقود بيده اليسرى، وتوقف عن التدوير حين استقر المذياع على راديو حيفا. كانت القناة في هذه اللحظة تذيع الأحوال الجوية، مما يدلّ

أنّ النشرة الإخبارية قد انتهت. حين وصلوا الى مركز الشرطة، لم يُسمح لهم برؤية عدنان.

حين وصل بشير، عرّف نفسه على أنّه محامي الدفاع عن عدنان، وطلب أن يسمحوا له برؤيته. دخل بشير الى عدنان بثقة، يحمل بيده حقيبة جلد منتفخة، في داخلها قانون الجنايات كاملا، رأى عدنان يجلس منهارا من التعب؛ فعلى الفور أبلغه ألا يكشف للشرطة إلاّ ما يتفقان عليه، ثم سأله أن يقصّ عليه ما حدث؟

لقد سرقت البنك القومي الواقع في الهادار. ألم تقل أنّها الوسيلة الوحيدة لرؤية القضاة

أغبيٌ أنت من يفعل شيئا كهذا! أخبرني الآن كيف فعلت ذلك؟

دخلت الى البنك ورفعت سكينا عاليا، ثمّ طلبت من الجميع الجلوس على الأرض، وأُحضرت الشرطة خلال عدة دقائق!

هل أخذت مالا؟

كلا!

اسمع ... قل إنّك سئمت من طوابير الانتظار؛ فوقفتَ مُغاضبا، وقل إنّ غايتك لم تكن السرقة.

إنّ كلام بشير قوبل بالرفض؛ فإنّ عدنان قد خاف ألا يتمكن من رؤية أحد القضاة، وخاف من تأجيل المحاكمة إذا تبيّن أنّه ليس خطيرا على المجتمع. عندئذ خرج بشير ووقف عند مصطفى وصفوان، الذين غشيَهم الارتباك والذهول؛ فقصّ عليهم خطة عدنان وفصّل لهم موقفه وعناده؛ فاستشاط مصطفى غضبا " قل له أن يستمع لكلامك وألا يتصرف بغباء". حاول بشير أن

يهدئ من روعهم، وأخبرهم أنّ لديه خطة كفيلة بنقض ما غزله الادعاء.

في يوم المحكمة، جلس الدفاع والادّعاء، وعدنان وحضر والده وصفوان، ثمّ ابتدأت الجلسة بتقديم لائحة الاتهام وطالب الادّعاء بإنزال أقصى العقوبة بعدنان؛ فهبّ بشير بثقة عالية، موجها كلامه الى القاضي:

سيادة القاضي لم تكن في نيّة عدنان السرقة بتاتا. نحن جميعا لا نستطيع قراءة الأفكار لكن هناك قرائن تدل على النيّة. منها أنّ عدنان لم يطلب من موظفي البنك أن يُفرغوا الأموال في الحقائب، ولم يهددهم إذا لم يفتحوا له خزينة البنك.

عندئذ قفز محامي الادّعاء من مكانه، وصاح اعتراضا على كلام بشير، متعللا بأنّه ماذا يريد شخص مسلح بالسلاح الأبيض داخل بنك؟ نظر بشير الى عدنان وقال له بهمس بأنّ غايته قد

تحققت في رؤية القاضي، وطلب منه ألا يعترض عما سيقوله أمام القاضي. التفت القاضي نديم السلّال الى بشير وقال:

توقف عن أحاديثك الجانبية حالا! توجه بقولك الى المحكمة، نحن لسنا في السوق!

اعتذر بشير، وطلب من القاضي أن يوافق على رغبة عدنان الدفاع عن نفسه، مما أدّى الى اعتراض الادّعاء مرة أخرى؛ فطلب القاضي من بشير أن يوضّح غايته من ذلك!

سيادة القاضي الأصل في الدفاع، دفاع الشخص عن نفسه، ولمّا صارت القوانين معقّدة مع الزمن، لجأ النّاس الى المختصين وهم المحامون. أما إذا أراد صاحب الحقّ استرجاع حقّه في الكلام؛ فليس لعدالة المحكمة أن تمنعه.

أحسّ الادّعاء أنّ بشير يحاول جاهدا أن يكسب وقتا، وقد علموا مُسبقا أنّ الدّفاع سيؤجج العواطف من خلال استغلال مرض مصطفى؛ فالتفت محامي الادّعاء نعمان الى القاضي، وقال:

أيّها القاضي المبجّل، إنّ محاولة إشراك عدنان في الكلام، ما هي إلا محاولة لاستدرار العواطف، الأمر الذي سيعيق مجرى العدالة.

تكّلم القاضي نديم، الذي كان يُمسك مطرقة في يده اليمنى، ويُوجه التعليمات الى أشخاص يجلسون تحت منصته، لا ينطقون ويُسمعون صوت أزيز مدوٍ، لا ينظرون الى الملامح أبدا. توجه القاضي نديم الى نعمان قائلا:

السؤال هنا ليس موضوع كلام، إنّها الأحقّية في الاشتراك بالدفاع. ثم توجّه الى عدنان قائلا: إنّك تستطيع أن تشترك بكلام يخصّ القضية فقط!

وقف عدنان، وبدأ يشرح للقاضي، كيفية دخوله الى البنك مترددا خائفا؛ فهو لم يرتكب جريمة في حياته. إنّ سجله كان خاليا، حتى من مخالفات المرور. وقف عدنان عند مدخل البنك، تأمّل الداخلين والخارجين، حتى دعاه الحارس الى الدخول، أو الابتعاد؛ فدخل. كان يوما عاديا حتى دخل، جلس على أحد المقاعد

الجلدية البرتقالية؛ ليحسم أمره في تنفيذ الخطة. كان طابور المعاملات العامة طويلا على غرار طابور أصحاب المصالح التجارية، على يمينه جلس رجل بشوارب طويلة سوداء، يضع أمامه علبة من مشروب الطاقة، شربها على ثلاث مراحل، ثمّ أطلق من فمه صوتا عظيما بعد أن تسرّب منه الغاز، كان منظره مثيرا للاشمئزاز، وفجأة قطع تركيزه صياح امرأة بدينة، تلبس تنورة فضفاضة من الجينز الكحلي، المائل للأبيض، تتسع كلما نظرت لأسفل، وشعرها الأسود مقصوص على مستوى شحمتي أذنيها، وقفت في وسط البنك، حتى يسمعها كلّ الزبائن، وأخذت تصيح:

سرقة ... سفلة... تأخذون مال الناس بالخداع ... أريد المدير حالا!

لم يُعرها أحدهم انتباهه، لكن كلامها أجّج الغضب لدى عدنان؛ فحسم أمره، وأخرج سكّينا مُغلقا من جيبه، ثمّ فتحه ولوّح به وأخذ يصرخ:

إنّها عملية سطو ... لا تتحركوا من أماكنكم

اتّضح أنّ عدنان لم يكن يعلم كثيرا عن عمليات السطو، ولم يخطط لما بعد مرحلة الصراخ، فأخذ يعيد الكلام ويردده، وكأني به يقول " افعلوا ما يجب أن تفعلوه في هكذا وضع، ولننتهي من هذا المأزق". قدِمت الشرطة وصاحت به أن " ألقي ما بيدك، وضع يديك على رأسك" ثم صاحوا " استسلم؛ فأنت محاصر". كان عدنان مستسلما منذ البداية فألقى السكّينة من يده، وعلى الفور، أحاطته الشرطة وكبلوه، واقتيد الى مركز الشرطة. في الطريق الى المركز كان عدنان يتأمل حوله محاولا أن يخزّن أكبر كمية من الذكريات، تكون عونا له في وحدته، فقد علم أنّه مُقبل على سنوات كثيرة من السجن. نظر الى يمينه؛ فرأى أطفالا مبتهجين يشترون دوائر البوظة، ونظر الى يساره؛ فرأى عجوزين يجلسان على مقعد، يراقبون السيارات.

سيادة القاضي ... أنا لم أسرق شيئا ولم أؤذ أحدا... كل ما هنالك أني أردت أن التقيَك على عجل. إنّ سبب ما قمت

به كان جمعية " الأدوية اليتيمة"، الذين سلبونا حقّنا في الحصول على الدواء، وإنّنا يا سيادة القاضي لا نملك وقتا لمقاضاتهم... فابني يحتضر.

حين فرغ عدنان من كلامه، أضاف بشير قائلا:

إنّ ما فعلته السيدة رسمية، مناف للأعراف، ومناف لأحكام الاتفاقيات، لذلك أطلب من عدالتكم، أن تُجبروا الجمعية ومديرتها على تمكين موكّلي من الحصول على الدواء.

كان الحضور يُتابعون تطور الأمور باهتمام شديد، وعلى ما يبدو فإنّ خُطّة عدنان قد نجحت، حيث تمكّن من قول ما يريد للقاضي! وامتلأت القاعة بالأحاديث الجانبية، والهمس الذي يقطع التركيز فيشتته؛ فيصعُب تجميعه بعد ذلك. عندئذ ضرب القاضي بمطرقته ثلاث مرات، وصاح طالبا سكوت الحاضرين، ثم قال:

لعل إلغاء الاتفاقية من جانب " الأدوية اليتيمة" هو السبب في سطوك على البنك وترويع الناس، وسنأخذُ ذلك في الحسبان. لكنهما قضيتان منفصلتان، وأنت الآن أمام محكمة مختصة بالجرم، وأمّا الاتفاقيات فهي من اختصاص محكمة أخرى، ولا غنى عن تقديم شكوى منفصلة. وأمّا قضية السطو، التي تقع ضمن اختصاصي، وبعد الأخذ بعين الاعتبار اعترافك وندمك، وسلسلة الأمور التي أوصلتك الى ذلك؛ فستحصل على تخفيف رحيم. حَكمت عليك المحكمة بالسجن ثلاث سنوات، مع بدء الأحقية بالاستئناف بعد سنة من الآن. رفعت الجلسة. ثم ضرب بمطرقته مصدرا صوتا مُدويا يهتك سكون الآذان، ويخرجها عن طورها.

صاح مصطفى " مستحيل... مستحيل" فحين أفاق ذلك الصباح لم يُخيّل إليه أنه سيُمسي من دون ابنه، الذي سيقبع في السجن لسنوات، وخلال هذا الوقت، سيكون هو مسؤولا عن

مصطفى الصغير. لكنه أراد أن يظهر مترابطا صامدا أمام عدنان، فقال له:

لا تقلق يا عدنان سنجد حلا ... عليك فقط أن تصمد قليلا، ولا تُرهق نفسك بالتفكير، ولا تفصل بين جسدك وروحك، بل لا تنسى أن تعيش أينما تكون، واجعل البحث عن السعادة غايتك، حتى في هذا المكان، الذي ستدخله.

انتبه جيدا لمصطفى واهتّم به من أجلي ... واكتب لي عن كلّ التفاصيل!

لا تقلق ... لن نتركك أبدا.

بعد ذلك نظر عدنان الى صديقه صفوان، الذي انتقع وجهه بالأصفر الصحراوي، وطلب منه ألا يترك والده وولده، وألا يكُّف عن زيارتهما، ثمّ غُيّب عدنان وراء الجدران السميكة.

(12)

التّفاحة الذهبية

العشرون من أكتوبر، في مثل هذا اليوم وُلد عدنان، لكنّ العيد هذا العام يختلف عما قبله. في السابق كان يخضع لقوانين الحياة الخارجية وللحرية التي تعطيها، أمّا هذا العام فهو يخضع لقوانين السجن المجهولة. إنّ الشعور بالهزيمة تورث العداوة، لذلك فقد شعر عدنان بعداوة تجاه الحياة في الخارج. إنّ قدره الانعزال، ولعلّه يجد في ذلك شفاء لروحه السقيمة، المحشوة بالذكريات، التي تندلق من رأسه من دون أن يُحكم السيطرة عليها. إنّه الآن يتواجد في مكان، لا يعرف أحد عنه شيئا، ولا هو يعرف عن أحد ممن يخصونه شيئا. في داخل السجن قومٌ لا

ترتبط ذاكرته بهم، ولا هُم يأبهون بقدرته التفصيلية على التذكر. لا يساوي الماضي عندهم سيجارة واحدة. كان يقول وهو مستلق على ظهره ينظر الى السقف المهترئ:

هذه الحياة تتكلم معنا، ونتكلم معها بيد أنّ لُغتها ليست الأحرف، إنّما الصدمات؛ فإن أرادتك أن تغير وجهتك، صدمتك.

قضى عدنان أيامه الأولى، في استحضار الذكريات. كانت كلُّ أملاكه في هذا الوقت، بطانية من الصوف، التي لا تُشعرك بالدفء مهما بلغ سُمكها، والكثير الكثير من الأفكار والهواجس، فقال: " لا شيء مميز هنا، لا شيء بارز، لا شيء شاذ". تنهّد وتأمّل حوله حيطان زنزانته المهترئة التائهة، في سجن الدامون القريب من حيفا.

إنّ هذه الزنزانة، التي تحتوي الانسان وتستحوذ عليه؛ فتطمس ملامحه، لها عالمها الخاص وقوانينها الخاصة. إنّ السجن مكّن عدنان من ممارسة الاجتماعية الأنانية؛ فهو كباقي البشر مخلوق

اجتماعي. وقد كان يتقرّب من باقي السجناء، قدر حاجته في التسلية والترويح عن النفس، وحين يمّل من ذلك، يعود فينزوي على سريره، من دون واجبات، ولا حقوق، حيث كانت هذه العلاقات مريحة له.

فكّر عدنان، في أنّ عليه ألّا ُيظهر ضعفه أمام السجناء، فإن سُئل عن جُرمه، قال بأنّه سرق بنكا، وخطّط لعدم ذكر ابنه المريض، أو تردده في سرقة البنك، وسجله النظيف قديما. في ليلته الأولى لم يستطع النوم بعمق، لكنّه في لحظات غفا فيها، رأى حُلما عجيبا. لقد رأى آمر السجن يتقدم اليه، ويخبره بأنّ السجن قد بُني على أنقاض قلعة رومانية، وأنّ هناك كنزٌ عظيم من العملات الذهبية والمجوهرات تحته، وأنّ هناك سراديب كثيرة متشعبة، تؤدي إليه، لذا طلب من عدنان مساعدته قائلا:

نحن بحاجة الى ذاكرتك الفذة، لنستطيع الدخول والخروج بسلام، ولك حصتك من الكنز.

وهكذا كوّن آمر السجن فريقه. في البداية حاول عدنان التملّص من هذه المهمة لكنه رضخ لتهديد آمر السجن:

إني أعدك يا عدنان وعدا لا يفتر، بأنك إن لم تساعدني؛ فلن تُبصر النور أبدا، وستقبع في هذا السجن ما حييت!

نزلوا الأربعة من فتحة ضيقة كانت مخفية في باحة السجن، ودخلوا إلى سراديب ضيقة، في البداية كانوا يمشون، ثم أخذوا يزحفون، ثم شيئا فشيئا بدأت الأرضية تتبدل، وتصبح مرصوفة بشكل متقن وجميل، مما شجّع الفريق على المتابعة، ثم فجأة وصلوا الى قاعة واسعة.

في القاعة الواسعة، توجد ثلاث دفات، تبعُد عن بعضها ما يقارب المتر الواحد. تُشبه دفّات السُفن، لكنّها فولاذية. كانت جميعها متماثلة. ظنّوا في البداية، أنّ احدى هذه الدفّات تفتح طريقا الى الكنز، والاثنتين الأخريين، فخٌ يؤدي إلى موت حتمي. أخذوا يبحثون عن علامات لعلّهم يهتدون الى الدفّة المُنجية.

ثم خلصوا الى تجريب إدارة، كلّ واحدة من الدفّات على حده...

انتبه عدنان الى رموز موجودة فقال:

انظروا توجد هناك صورة لأفعى كوبرا، على كل دفّة، وفوق جميع الدفّات توجد صورة نحلة... فكّروا قليلا ما الذي يُميز الأفعى عن النحلة؟

بعد عدة دقائق قال آمر السجن:

أعتقد أنّ الفرق في كون النحلة تعيش في مجموعة، على عكس الافعى!

قال عدنان فزِعا:

لو جربنا كل دفّة على حدة، فسوف نقع في الفخ المهلك، أمّا إن أدرنا جميع الدفات في نفس الوقت، فسوف ننجح!

وفعلا تقدموا جميعا، عَدُّوا حتى ثلاثة، وأداروا جميع الدفات، فارتجّ المكان، وتساقط الغبار، وكُشف عن غرفة ذهبية، بها شجرة تفاح ذهبية، تَحمل تفاحة ذهبية واحدة؛ فولجوا جميعهم

بسرعة، يتسابقون ويتنازعون على التفاحة، وكلّهم يصيح بصاحبه:

انها لي ... انها لي!

وصل آمر السجن إليها فقطفها؛ فارتجّ المكان ارتجاجا مخيفا، ورُدم المخرج، وحُبسوا جميعا. عندئذ تيقّنوا من الموت، فقال عدنان:

أعماكُم الجشع عن قراءة الرموز، فحين ظننتم أنكم قد وصلتم، ما كان ذلك إلا اختبارا آخر!

قام عدنان من نومه فزِعا، يتذكر جميع تفاصيل حلمة، وأخذ يراجعه، ويحاول تأويله.

كان شريكه في الزنزانة يُدعى، طاهر الراوي. قليلُ الكلام كثيرُ النوم، كان داهية في التعامل مع الأمور، مما يُؤيد النظرية التي تقول أنّ الصُلعان أذكياء. دائما ما تراه مُرتديا بجامته الزرقاء، ويضع منشفة بيضاء على كتفه الأيمن، وغالبا ما يضع سِواكا في

فمه، يفرك به أسنانه. كانت فرشة سريره أكبر من فرشة سرير عدنان، لعلّه استولى عليها قُبيل مجيء عدنان، حين كان يفعل ما يحلو له في الزنزانة، وكثيرا ما أراد عدنان أن يُفاتحه في ذلك؛ فلا يُعقل أن يتمتع بالفرشة الجيدة وحده. في البداية لم يَلمح عدنان وجود شيء مريب في السجن، لكنّه مع الوقت أخذ ينتبه، لأحداث غريبة تدلّ على وجود نظام معين، وسياسة متبعة، وأنّ الأمور تجري بترتيب يثير الريبة، لكنه لم يفهم ذلك منذ البداية.

(13)

قطار الحياة

قدم الحارس الى عدنان في زنزانته وناداه:

سجين 1542 وصلك بريد

أدخل الحارس البريد من فتحة الطعام، في وسط القبطان

فتناولها عدنان، ثمّ اتّضح أنّها من صفوان، مكتوبٌ فيها:

عزيزي عدنان،

لا تنتهي اختياراتنا ما دُمنا أحياء، هي فقط تتخذ صورا جديدة. لقد أرفقتُ مع الطرد قرطاسا وقلما. اكتُب يا عدنان. اكتُب حين تشعر باليأس، وحين تشعر بالشوق،

واكتُب حين تشعر بقلة الحيلة! ولا تقلق على مصطفى، فهو في أيد أمينة.

صديقك المخلص،

صفوان.

فرح عدنان كثيرا بالرسالة، وقذف بالقرطاس والقلم على سريره، وعندما أراد النوم خبأهما تحت السرير، فهو لم يشعر بحاجته إليهما. قُبيل الخلود الى النوم، نظر عدنان الى شريكه، وسأله:

علامَ سُجنت؟

نظر إليه طاهر بحزن، وقال:

لقد علمتُ أنّك ستسألني هذا السؤال... إنّي لا أحبّ الخوض في ذلك كثيرا... لكني لا أعلم لماذا ارتحتُ لك ... لقد قتلت والدي!

ماذا! قتلت والدك؟ كيف استطعت أن تقوم بعمل كهذا!

تعلّم يا عدنان أن تسمع الحقيقة كاملة، قبل أن تحكُم على الأشخاص... لقد كنا نحن وأمّي، نتعرض لأقسى أنواع التعذيب منه... كثيرا ما كان يُهدّد والدتي بوضع السّكين على رقبتها، وقد نشأت وفي ذهني أمر واحد، وهو أن أحمي والدتي منه، وحين تهجّم عليها قبل أربع سنوات، كانت المرة الأخيرة التي يفعل فيها ذلك، لأنّي قتلته. لكنني أعلم الآن أنّ والدتي بأمان.

صمت عدنان ولم يدرِ ماذا يقول، ثم استدار الى الناحية الأخرى، وغطّ في النوم. وفي الصباح استفاق على صوت الحارس يناديه، ويصيحُ به، حيث طلب مدير السجن مُقابلته. قام عدنان بسرعة، وذهب للقائه، كان عظيم البطن، له شوارب متدلية على شفتيه، وشعْرٌ خفيف على رأسه، ويُدعى عوض.

إنّك نزيل جديد هنا يا عدنان ...عليك أن تعلم أنّ هذا السّجن، قد حاز على المرتبة الثانية، في اختبار منظمة الإدارة السليمة، لقد جهدنا حتى وصلنا لهذا المركز، لذا

علينا أن نُحافظ عليه، لذلك أودّ أن أطلب منك، أن تُحافظ على القوانين والنظام المعمول به في السجن... الآن اريدك أن تُقابل شخصا!

فكّر عدنان لكنه لم يستطع التخمين، من سيكون هذا الشخص، فلم يكُن لديه أية معارف في السّجن، ثم فجأة، دخلت تمارا، بهيئتها المعهودة، وذوقها الرفيع، في اختيار الملابس.

عدنان ... لم أتخيّل، أنّي سألتقيك هنا.

تمارا تعملين هنا!

اسمع يا عدنان، لقد سمعت ما حصل معك... إن كنت تُريد أية مساعدة، أستطيع أن أقدمها؛ فلا تتردد.

نادى المدير عوض الحارس كي يعيد عدنان الى زنزانته، فوقف عدنان وبدأ يخطو باتجاه الباب، فاستوقفهُ المدير قائلا:

احذر يا عدنان من شريكك طاهر؛ فلا يخدعنّك بكلامه المعسول، إنّ عليك أن تستبين، قبل أن تأخذ كلامه على محمل الجدّ، لقد قتل طاهر والده، لأنّه حرمه من الميراث!

طلبت تمارا من عوض، أن تُكلّم عدنان على انفراد، فوافق وخرج بعد أن أغلق الباب، فقالت تمارا:

حين كنتُ صغيرة يا عدنان، كان والدي يُعلّمني أن أحذر من النار. وكان يُذكّرني في كلّ مناسبة أن انتبه، ولكنني في يوم من الأيام، وضعت يديّ على المدفأة حتى احترقت. إذ أنّه لا تغني تحذيرات العالم، عن التجربة... ما أودّ أن أقوله يا عدنان، أنّه كثيرا ما حذّرونا من إلغاء الحدود بيننا وبين مرضانا، إلّا أنّني لم أستطع أن أحافظ على المساحة بيني وبينك، هنالك شيء، لا أدري ما هو جذبني إليك... لقد أحببتك يا عدنان.

تفاجأ عدنان مما سمع، فهو لم يُلاحظ قطّ انجذاب تمارا اليه، فقال:

أنت تخاطرين بنفسك، مع شخص بلا مستقبل، يعيشُ كلّ يوم تعاسة الماضي!

متى كان الحب منطقيا.. إنّه حين يأتي .. يكونُ على غفلة، ولا يستأذن الظُروف!

في البداية ظنّ عدنان، أنّ ما شعرت به تمارا تجاهه، ما هو إلّا إحساسُ الشفقة والرأفة، فقد رأته يعاني الأمرّين، ولم يكن لديه أدنى شك، بأنّ مشاعرها ستتبخر، وأنّ النسيان سيكون كفيلا بإجهاض هذا الحبّ. لكنّه كان مخطئا، فقد أبدت موقفا صارما في عدم تخليها عنه، وقالت أنّها مستعدة لتضحي بأيّ شيء، من أجل أن يعيش هذا الحبّ، وقالت أنّ من الرحمة بنفسها أن تُمكّن من تحقيق إرادتها، وألا تقمعها، وأنّ قمّة العذاب أن تُسلب حبها، وأنّ سكينتها، ستكون في اجتماعهما معا.

شعر عدنان بشيء من الريبة، إذ كيف يُوفّق بين اجتماعهما المفاجئ، وبين اعترافها له بحبه، وتساءل، ماذا لو لم يلتقيا في السجن؟ عندئذ لن تبوح له بحبها، لكنّه تذكّر أنّ القدر دائما ما

يجمع المحبين، مُخلّا بقانون السببية. ثم أخذ عدنان يُفكّر، هل تُحبه عطفا بسبب مرضه؟ ورأفة به بسبب معاناته مع ابنه؟ فإن كان كذلك، فإنّ هذا الحبّ مصيره الفشل! وإن كان كذلك، فستكون مشتتة، لا تدري ماذا تريد، وتكون مترددة في كلامها ... بيد أنّ كلامها كان حازما.

ثمّ فكّر في أنّ مساعدتها له، وتواصلها، أدّت الى نوع من أنواع الاكتفاء، الذي أورثها لذة فظنّتها حبا، ثم قال في نفسه:

كيف أستطيع أن أعلم، إن كانت تحبني حقا؟

بعد تفكير عميق، استنتج أنه، إن كانت صادقة في كلامها فإنّها ستصبر على ما يعتريها من أحاسيس، ولن تتنازل عنه مهما كان السبب، وأنها ستعادي أيّ شيء يُبعدها عنه، والأيام كفيلة في اختبارها.

اليوم كانت الزيارة الأولى لمصطفى الى ولده في محبسه. كان يظهر رابطا جأشه، مُتماسكا يبثّ سكينة، عساها تتعدى الى ولده ثم قال:

الحياة يا عدنان كعربات قطار متصلة فيما بينها ... ونحن نمشي فيه من مقصورة الى مقصورة. تُعجبك أحدها؛ فتنشرح نفسك، وتكره أحدها؛ فتضيق نفسك. وما هو أكيد أنّك ستواصل المشي في كلتا الحالتين. أتعبك المرض؟ عما قريب ستلج المقصورة التي بعدها، لكن... انظر إلى ما بين يديك، إنّ المرض يا عدنان يُؤجج الفكر، ويزيد الاهتمام ويُنمّي التحدي. هو لك صبر، ولمن حولك هُدى. ولك ألم، ولمن حولك اختبار، وعما قريب ستتبدل الأمكنة، وغدا سيكشف الصبر عن قوة كامنة، وسينتهي الألم؛ ليُظهر صورة بديعة من الحكمة. أتريد أن تعلم سرّ هذه الحياة ... الكُلّ يطمع فيما ينقصه؛ فاختر نقصك، ولا تدع نقصك يختارك.

(14)

حيّز الموهبة

في زنزانته، تذكّر عدنان حين رقد في المشفى، بعد الحادث، وتذكّر السيدة السمينة، صاحبة الوجه الدائري وزوجها، وكلامهما عن تقبل الأمر الواقع، وقد أحسّ أنّ كلامه وقتها، ملائم جدا لحالته الآن، وأنّ عليه أن يرضخ ويستكين، ولا يُعذّب نفسه بالتفكير؛ فإنّ كلمة "لو" مُتعبة ومُشتتة للقدرة، ومُثبطة للعزيمة. وأنّ العيش في الماضي، كمن يُربّي وحشا سيأكله حين يجوع. فكّر في أنّ عليه أن يتصالح مع نفسه؛ لأن إشعال الحرب معها سيهلكه، فإنّ القتال مكرٌ، ومكر النفس، يكون في استحضار التجارب الفاشلة، التي تلوي الذراع وتُؤنب الضمير، ولا تستطيع مع

نفسك شيئا، فإنّ تربصّك بها، كتربص الأعمى بالمبصر، يراك ويعرف حركاتك، ولا تراه ولا تدري متى يُهاجمك. أخذ عدنان يتذكّر مواقف وتجارب بصورة عشوائية في حياته. ذكريات سعيدة، وأخرى حزينة، ثم تقطعها ذكريات تبعث على الخجل، وأخرى على الفخر. أحسّ بتعب شديد، واستشعر كمية الذكريات الهائلة وتفاصيلها الدقيقة. لا نهاية للذكريات، مُنذ أن بدأ ينطقُ حتى الساعة. شعر بطاقة هائلة كامنة، وشعر بضغط شديد في رأسه، ومن دون تفكير أرسل يده الى تحت السرير، وأخرج القرطاس وبدأ يسكُب كلماته المتراصة بغزارة الحبر على الورق كعناق حبيبين بعد طول غياب. في البداية كان يكتب ذكرياته بعشوائية، ثم أخذ يكتب ذكرياته بطريقة مُنظمة، كان مما شجّعه على المواصلة شعوره بالراحة العجيبة بعد كل شعورٌ يسكُبه على الأوراق، حتى أنّه لام نفسه، لأنه لم يجرب هذه الوسيلة مُسبقا، مع أنّها كانت وسيلة سهلة ومتوفرة أمامه طيلة الوقت. كانت ذكرياته القديمة تبعث الاستغراب في نفسه، وقد شعر أنّه كان انسانا مختلفا، أو أنّه أصبح مُختلفا عما كان

عليه، لعلّ ذلك يُسمى بالنضج! انتبه أنّه كان يحزن على أشياء تافهة كان تبدو لأول وهلة مصيرية، وهي بالمقارنة مع ذكرياته اللاحقة تصّبُ في خانة توافه الأمور، وكثير من الأشياء أسعدته ومع الوقت فقدت بريقها وفقدت أهميتها، أصبح لديه صديق جديد وفي ومخلص، لا يُحرّف ولا يُفسّر، ولا يُبارحه أبدا. كثيرٌ من الذكريات التي كانت علامة فارقة في حياته، كتبها مرتين وثلاث مرات وأكثر، وتوقف حين يشعر أنه تخلّص من بقاياها في رأسه. كان رأسُه مليء بالتفاصيل الدقيقة المثيرة للدهشة، التي حسبها الناس موهبة، حيث شكّلت ضغطا هائلا، إذ أنّها لو كانت كهرباء؛ لأنارت مدينة كاملة. صار يتوقف حين تخدر يده فقط، أو حين يحتاج لقضاء حاجته. شعر أنّه وصل لغايته، وفكّر في أنه لن يترك الكتابة أبدا فقد أحبها وأحبته، ولعلّ موهبته قد قادته للكتابة، ولعلّه مشروع الكاتب القادم! كان الحبر كالماء يسقى الأوراق اليابسة؛ فيعيدها الى الحياة وأخذت الأوراق تمتلئ الواحدة تلو الأخرى والقرطاس يتبعه آخر، وعدنان يصبح أكثر هدوء وسكينة، وينزوي أكثر وأكثر حتى اتخذ وضعية واحدة،

على زاوية سريره، ولم يعُد يُفكّر في فراشه أو في أي شيء آخر، فقد فُتحت أمامه بوابة العوالم، يجول فيها ويصول.

لأول مرة يعتقد عدنان بأنّ كل شيء يحدث لحكمة معينة؛ فلعلّ وجوده في السجن كان شرطا من أجل البدء بالكتابة، ولعلّ موهبة الذاكرة الفذة والضغط الكبير الذي خلّفته كان وازعا من أجل صرفه الى الكتابة، فكّر في أنّه يستطيع أن يقدّم لعالم الكتابة ما لا يستطيع غيره أن يُقدمه فإنّ التجارب المميزة، والتي منها ألم الفقدان، وصعوبة الصدمة ستكون كتابا مميزا ثم طرأت على باله فكرة تأليف كتاب عنوانه " في بيتي مريض" وبذلك يقوم بالتوعية بحالة ابنه المريض ويُنبه العالم الى ضرورة مساعدة الحالات المماثلة، ولعلّه يتوصل الى حلّ لمداواة ولده.

أصبح عدنان يكتب بشراهة حتى ساعات متأخرة من الليل، مما أثار حفيظة طاهر؛ فلم يعُد ينعم بالراحة كما كان سابقا، وكان يتحسر على الأوقات التي قضاها وحده في الزنزانة. طلب طاهر من عدنان أن يُطفأ النور؛ لأنّه لم ينجح في النوم، وقال له:

ألا تظنّ أن الليل خُصّص للنوم؟ ما بالك لا تنام، ولا تدعني أنام!

ألا تظن أنّ من حقّي أن أمارس حريتي، فيما أراه مُناسبا؟

لست وحدك هنا حتى تمارس حريتك، في هذا الوقت المتأخر... هذا ما ينقصني الآن... بُنيت هذه الزنزانة لسجناء، وهي قطعا ليست مهيأة لأصحاب المواهب.

موهبتي هي أنا وأنا هي موهبتي، لا تتكلم عن أيّ منّا بضمير الغائب!

أنت تريدني حيطا أو خشبا يابسا في هذه الزنزانة ... أين ذهب السّجناء الطبيعيون ... غدا سوف أشكوك للزعيم!

بدا عدنان مُصّرا على ما يقوم به، وقد أخبر طاهر الجميع بما حدث، وطلب أن ينتقل هو أو عدنان من الزنزانة، عندئذ اجتمعت تمارا مع طاهر وقالت:

علينا جميعا كمجتمع أن نرعى المواهب؛ لذلك عليك بالصبر حتى يفرغ من كتابه... وأنا متأكدة أنّه سيعود بالنفع على جميع السجن.

لم أفهم لم عليّ أن أتحمّل كلّ ذلك نيابة عن الجميع ... لا أُتّفق معك ... إنّني أطلب حقوقي الأساسية فقط، أريد حقي في النوم المريح.

ذهبت تمارا إلى مُدير السجن عوض، وطلبت منه أن يتدخل لصالح عدنان، وكان واضحا جدا تعاطفها الكبير معه:

تعلم أن سُمعة ومكانة السّجن، ستعلو فوق جميع السّجون، حين يعلمون أنّنا نهتم بالمواهب ... ونُشجّع النُزلاء على استغلال طاقاتهم بما ينفع، يا حبذا لو تتكلم مع طاهر، ليظهر القليل من الصبر، أو أن تنقله إلى زنزانة أخرى.

لا توجد لدينا زنازين شاغرة... إنّما سأتكلم معه، لكنني لن أعدك بشيء، فهذه حقوقه البسيطة.

أرسل عوض في طلب طاهر الى مكتبه، ثم أجلسه وقدّم له كوبا من الشاي وقال:

أتعلم يا طاهر، عليّ أن أختار شخصا، يُمثّل السّجن في مقابلة مع جمعية الإدارة السليمة، أعتقد أني سأدرج اسمك، بسبب قُدرتك العالية على الاقناع، وتمكنك من الخطابة. إنّ الشخص المختار، ستكون له مزايا عديدة، ولا تدري لعلّك تكون ضمن قائمة العفو العام، للسنة القادمة.

ماذا تريد مني في المقابل أيها المدير؟

أريدك أن تتفهم السجين الجديد، وتصبر عليه قليلا!

هكذا إذا ... أنا لن أفرّط في حقوقي مهما كان الثمن.

حسنا... تذكّر فقط أنّك من بدأ بالحرب!

عاد طاهر الى عدنان ونظر إليه باشمئزاز، وأخبره بأنّه حتى لو وصل الى رئيس الدولة؛ فلن يُغيّر ذلك من موقفه، لكنّ عدنان لم يفهم السبب وراء كلامه ذلك. بعد عدة ساعات قدِمت تمارا الى عدنان ومعها مصباح مكتب، وأهدته له وطلبت منه أن يكتب مستعينا بهذا المصباح، وبذلك تحلّ المشكلة، وتبقى لطاهر البيئة الملائمة، ليمارس حياته الطبيعية. ومثل هذه المصابيح لم تُر في السجن مُسبقا؛ فحين علم السجناء بذلك طالبوا بتحقيق المساواة، وتمكينهم من الحصول على مصابيح. لم تدر تمارا أنها بعمل بسيط كهذا، ستُغضب السجناء الذين أصبح همّهم الوحيد الحصول على مصباح. مما أدى الى تدخل سريع من مدير السجن عوض، عبر مكبّرات الصوت الموجودة في كل الزنازين، حيث خطب فيهم قائلا:

النُزلاء الأعزاء كما تعلمون؛ فإنّ الإدارة تسهر على راحتكم، ومن هذا المنطلق قررنا أن نعطي مصباحا، لكل من يريد أن يؤلف كتابا.

كان ذلك كفيلا بإجهاض الفتنة الحاصلة؛ فلم يتقدم أحد من السجناء بطلب الحصول على المصباح.

وصل البريد. استلم عدنان رسالة فتحها، وقرأ ما فيها:

عدنان، أنت لا تعرفني، لكنني أعرفك جيدا. لا أدري لم أكتب لك لكني أحسّ أني أكتب غصبا. شيء ما بداخلي يُحرّكني ويُوجهني. أعلم تماما صعوبة ما مررت به في الآونة الأخيرة. أريدك أن تتيقن أنّ القادم سيكون أجمل مما تتخيل، وأنّ المستقبل يحمل لك مفاجآت سارة، لن تتوقعها حتى في قمة الخيال!

باحترام،

المترقبة.

فكّر عدنان فيمن تكون صاحبة هذه الرسالة، ثم تساءل هل من الممكن أن تكون تمارا؟ لكنه نفى ذلك بسرعة إذ أنّ شجاعتها في الاعتراف السابق، يدلّ على أنّها لا تختبئ وراء الرسائل

المُبهمة. لا يمكن أن تكون مترقبة إنّها مُبادرة! إذا من قد تكون؟

في هذه اللحظة كان من المستحيل عليه أن يتنبأ بصاحبة

الرسالة، من قلة التفاصيل.

(15)

نظرية الزّمن المقلوب

مضت ثلاثة أشهر في السجن ومما هو مسلم به أنّ الماء والزيت لا يختلطان، لكن مع الزمن تكون لهم تجارب مشتركة تجعلهم مركّبا واحدا. إنّ الأمر ليس في تبادل الصفات بينهم بل في وحدة المكان والزمان المشتركة، ولذلك هما ليسا مادة واحدة انما مركب واحد. عدنان لم يعُد الفتى الجديد في السجن؛ فهناك من هو أجدد منه، ولم يعُد غريبا؛ فهناك من هو أغرب منه، فقد بدأ يتأقلم، وفهم أنّ للسّجن نظامه الخاص، الذي يختلف عن الخارج، وعلِم أنّ على الانسان أن يتقيد بقوانين المكان الذي

يحيا به، وإلا تعرض لشتى العقوبات. وبذلك بدأ ينصهر في السجن، يُشاركهم ويُحادثهم.

واصل عدنان سكب ذكرياته الغزيرة على الأوراق البيضاء، حتى لاحظ شيئا غريبا في كتابته، أحسّ وجود دورة معينة في الأحداث المكتوبة، وكأنّ أحداث حياته تعادُ دائما، دقّق كثيرا، أحاط أقوالا مما كتب بدوائر، وقارنها بأقوال أخرى، حتى أنّ مقياس الانفعال، عنده بلغ أوجه. فحص وقارن، وقلّب الأوراق، وأعاد؛ فقارن وفحص، حتى تأكد بما لا يدعُ مجالا للشك. فصاح بأعلى صوته: "وجدتها ... وجدتها". فقام طاهر من نومه جزعا، مُنتصبا على رجليه: "ماذا حدث؟ ماذا حدث؟". عندئذ قال عدنان:

لقد اكتشفت نظرية " الزمن المقلوب"

ماذا تعني بالزمن المقلوب!

إنّ كلّ ما تقوله في حياتك، سيُقال لك، وإنّ كلّ ما تفعله في حياتك، سيُفعل بك.

سُحقا ..ألهذا أيقظتني؟

في الصباح ذهب عدنان برفقة الحارس الى مكتب عوض الذي كان بانتظاره ومن دون مقدمات سأله:

ما الذي تفعله بالضبط؟

ماذا فعلت؟ قال عدنان!

عن أيّ زمن مقلوب تحدّثهم؟

ماذا؟ أتتجسس علينا؟

مجنونٌ أنت. أتقول لقاتل يشاركك الزنزانة، أنّ ما فعله سيُفعل به، أتقول له أنه سيُقتل. أتريد أن تُثير غضبهم. لا أنصحك لأنّه ستكون لذلك عواقب وخيمة.

عاد عدنان الى زنزانته؛ فوجد طاهر يجلس على سريره، وكأنّه ينتظره، وحين دخل إليه قال له:

لقد فكّرت فيما قلته، ماذا لو كانت نظريتك صحيحة لحياتك فقط؟

حياتي فقط! ذاكرتي لا تحتوي على حياتي فقط. حين أخبرتك عن ذاكرتي القوية كنت أعني ما أقول؛ فإنّي أتذكّر كل شيء حصل في كل المواقف، التي كنت بها وليس فقط حياتي.

أتعني أنّه محكوم عليّ بالقتل؟

أنا أدري كم هو صعب، لكن نعم هذا صحيح!

استلقى طاهر على ظهره ونظر الى السقف وجلس عدنان على سريره يُقلّب أوراقه، في هذه الأثناء تكلّم عوض مع تمارا عن حالة عدنان العقلية فقالت:

لا شك أنّ ما مر به عدنان ليس بسيطا ... من الممكن أنّه يُعاني من عوارض ما بعد الصدمة، وكأنّ عقله وجد طريقة للقاء أناس من الماضي.

كيف نتمكن من البتّ في ذلك؟ لنعلم إن كان يعاني مما قلتِه، أم أنّه صادق في نظريته!

ممم أعتقد أنّ السّر في معرفة ذلك عن طريق الأفراد المعنيين في نظريته فان كانوا أناسا محددين لا يتغيرون؛ فالأمر متعلق بالصدمة، أمّا إن كانوا متغيرين؛ فهو صادق فيما يقول!

على رسلك يا تمارا ... لم أفهم؛ فأنا لست خبيرا نفسيا

باختصار شديد... الصدمة فردية، والموهبة عامة، فإن نبعت نظريته من موهبته، فإنها ستصلح لكلّ زمان ومكان، أمّا إن نبعت من الصدمة؛ فعمرها قصير ومصيرها الفشل.

اها ... فهمت... إذا فالأمر يتعلق بكونه فكرة عامة وليست متعلقة بشخص معين... سوف أختبره قريبا.

أرسل عدنان رسالة إلى والده، بعد أن أحسّ بشيء مريب؛ فهُم لا يتواصلون معه، ولا يكتُبون له.

والدي العزيز،

أُناشدك اللّه، هل حصل مكروه لمصطفى؟ إنّي ائتمنتكم على أغلى ما أملك؛ فمن شُحّ الاتصالات أشمّ رائحة الإهمال ... أرجو أن تعذرني على صراحتي، ففي العائلة الواحدة تقع المسئولية على القادر...

ولدك المشتاق،

عدنان.

ثم كتب عدنان رسالة إضافية الى صديقة صفوان قال فيها:

صفوان العزيز،

كلّ يوم يمرّ، يزيد يقيني أكثر وأكثر بأهمية ما تفعله، فإنّ التحفيز والتشجيع دفيئة المواهب، والقراطيس حاضنتهم.

إنّ رسالتي هذه تحمل كلّ حبّ وتقدير على ما قدّمته لي.

عما قريب ستسمع أخبارا سارة.

صديقك المحب،

عدنان.

(16)

إعاقة الارتباط

بمجرّد أن يخرج الجنين من بطن أمّه تبدأ رحلة الشوق! يُمكنن التخلص من كلّ الأحاسيس، لكن لا يُمكننا التّخلص من الشوق ... ذلك أنّنا نشتاق إلى ما كان، وما كان لن يعود أبدا، أو على الأقل لن يعود كما كان. إنّ الذّاكرة تؤجّج الشوق والحنين، ولا حلّ إلّا بتسكينها بالنوم، لذلك فإنّ المشتاقين أهلُ النوم. فكّر عدنان في عدم قُدرة الكتابة الهائلة، على اختراق حصن الأشواق المنيع، وضربها بمنجنيق الزّمن لا يزيدها إلا صُمودا وعنادا. يتخيّل عدنان وقتا يشُذّ عن نظام الحياة الصارم يفاجئ فيه جليلة في المطبخ؛ فيحضنها بقوة، وترتمي بين يديه مستسلمة.

ويتخيّل يوما يشُذّ عن باقي الأيّام المنقادة للقدر؛ فيذهب برفقة جليلة إلى سويسرا الصغيرة في أعالي جبل الكرمل، ويمشيان وهُم يشبكون أصابعهم ويضحكان وكأنّ اللحظة لن تنتهي، ويُلقيان الدعابات وكأنّ المُنغصات قد اختفت... تساءل عدنان " أعليّ أن أكون سعيدا بذكرياتي؟ أيُعقل أن يكون النسيان أفضل؟". وهو ما يثير سؤالا مُلحّا لديّ، هل التّميز في شيء منافٍ للطبيعة؟ إنّي أعتقد أنه منافٍ للطبيعة، لكنه يصبّ في حوض الإرادة... فإرادة الانسان سبقت طبيعته، ولذلك يطير الانسان في الهواء، ويغطس في أعماق المحيطات. من هنا نرى أنّ التّميز هو طبيعة الإرادة وليس إرادة الطبيعة. فإن كان كذلك؛ فإنّنا نتساءل، هل الوضع الطبيعي هو أفضل صيغة لنا؟ والإجابة عن هذا السؤال منوط بالغاية التي وُجد لأجلها الانسان ... ويمكننا الاستدلال عن الغاية بالطبيعة المحيطة.

ضبط عدنان نفسه يُفكّر في تمارا... إنّه على يقين بأنّه يكُنّ تجاهها بمشاعر خفية، لم يكن يدر بوجودها. كانت ذكرياته النّشطة تُسبب له المتاعب وتساءل، هل من الممكن تخطّي

الذكريات والبدء بالتفكير بالمستقبل؟ أحسّ بأنّه خائن! فإنّ ذكرياته ما زالت حيّة تتنفس، تُصارعه وتضربه في الأماكن الحساسة. لكنّه كان مُتأكدا بأنّه ما من قوة تعادل قوّة الحبّ ورهبة حُضوره. الآن بالذات وبعد أن أوصلته ذكرياته إلى نظرية الزمن المقلوب! هل هناك من حاجة أخرى إليها؟ تمنى لحظتها لو يستطيع أن يفقد الذاكرة، ويبدأ حياته من جديد!

وصلت الى عدنان رسالة جديدة فتحتها، وقرأها:

عزيزي عدنان. ليتني أستطيع أن أبوح لك بمكنون صدري، مُجبرة على الكتمان، بيد أن الكتمان أشدّ رعبا من المكوث في غابة مسكونة. قلبي يرتعد، ولو لم أكتب لك هذه الكلمات تخفيفا من نار صدري، لكنت متّ في الحال.

باشتياق،

المترقبة.

احتار عدنان فيمن تكون هذه المترقبة. أخذ يُخمّن من تكون؟ لكنه لم يستطع الوصول الى نتيجة مُقنعة، حتى أنّه فكّر في احتمال كونه مقلب من شخص ما، لذا قرّر ألاّ يجيب على الرسائل التي تصله، وكان مما عضّد قرارة كون الرسائل مُشبعة بالأحاسيس الجامحة.

تواعد عدنان مع تمارا. لقد أراد أن يتأكد إن كانت هي التي تكتُب له، أو هكذا ادّعى ... إذ أحسّ في أعماقه بالشوق لها:

هل تعلمين يا تمارا، أنّ الارتباط بمن نُحبّ إعاقة!

ماذا؟ كيف يكون الارتباط بالمحبوب إعاقة؟

إنّ للارتباط شروطا يتخلى الشخص بموجبها عن جزء من كينونته!

وأنت عن ماذا تخليت؟

عن ذاكرتي؛ لأراك بجميع حواسي في حاضري ومستقبلي.

ابتسمت تمارا وبرقت عيناها العسليتان ثم قالت:

أتعلم ما أشدّ الإعاقات ألماً!

ما هي؟

الانتظار يا عدنان... الانتظار بعد استسلام الصبر، وإنّي أُعدّ الأيّام والثوانيَ حتى نجتمع

أتعلمين... لقد سكبت ماضيّ على أوراق بيضاء وسأبدأ حياتي من اللحظة التي رأيتك فيها.

عندما كان عدنان مُنهمكا في تقليب أوراقه، إذ دخل عليه رجل، عرّف نفسه بأنّه الزعيم. وحين أبصره طاهر قادما، قفز مُنتصبا على قدميه، ووقف كشجرة أرز. كان الزعيم مهيبا ذو شعر مختلط من السواد والبياض، وعلى وسط جبينه وحمة بورت واين حمراء. وكان ضوء الزنزانة الباهت يُضفي بُعدا ميتافيزيقيا على جسده، وانعكاس عيونه الزجاجيتين تُضفي سريالية كانت لتُلهم سلفادور دالي. وقف على باب الزنزانة تأمّلها، ونظر الى

جميع زواياها وأمكنة الخبايا فيها، عرفها من خبرة سنوات جعلته يهتدي من دون عناء، حيث اكتفى بعقله اللاواعي. ثمّ أبصر كومة الأوراق المُنظمة على سرير عدنان، فانقضّ عليها يُمزّق قسما، ويُلقي بالآخر على الأرض. أخذت الأوراق تتطاير بفزع وتنعطف بحدّة. وما كان من عدنان إلاّ أن صاح به " عيب ...عيب ... لا يجوز! من أنت؟" ودفع يده الآثمة، التي قضت على جُهد الليالي في ثواني معدودة.

نظر إليه الزعيم، وقال:

إن كان صحيحا ما تدّعي في نظريتك، فمن سيُمزّق أوراقي...وليكن حاضرا في ذهنك أنّي في حياتي كُلّها لم أكتب حرفا واحدا.

للقدر أساليبه، لا أُشغل نفسي حتى في التفكير بذلك.

لا مكان بيننا لمن يُحاول أن يُفرّق جمعنا ويُشتت صفّنا، ولا لنظريات غبية تُقصي كلمتنا

في كثير من الأحيان تقف مُتعجبا، من كمية الغطرسة الموجودة ... تحاول أن تجد تبريرا أو تفسيرا منطقيا، فلا تُوفّق في ذلك. من فوره توجه عدنان إلى عوض، مدير السجن، وقصّ عليه ما حدث! وقد وجد المدير مُتفهما ومُصغيا، وبعدما فرغ عدنان قال عوض:

إنّك كثير الشكوى نسبيا لسجين جديد، عليك أن تتعلم التّأقلم مع باقي السجناء وعليك أن تتعلم النظام المعمول به هنا!

كلّما اعتقد عدنان أنّه وصل إلى ذُروة الغمّ، فوجئ باستلائه وامتداده إلى نواح اخرى. والغمّ يُخرج الملفات الحزينة، فتساءل عدنان عن والده الذي لا يتواصل معه؟ لا شكّ أنّه حصل مكروه، وأنّهم يُفكّرون الآن في طريقة ليُخبروه! لا شكّ أنّهم يخافون من ردة فعله، لكن مع كلّ ذلك، لا يحقّ لهم إخفاء الحقيقة، وفورا أبرق رسالة إلى والده:

والدي،

لا تجعل بيني وبين الحقيقة برزخا... أفهم قلب الأبوّة المعجون على تخفيف الصدمات. لكنه قدري، اتركني له، فحين يغرز براثنه لا ينفعني عندها الكلام المعسول... أرجو الرد.

عدنان.

عاد طاهر الى زنزانته حزينا كئيبا، فسأله عدنان:

ماذا حدث لك، خرجت بحال وعدت بحال!

على ما يبدو نبوءتك ستتحقق قريبا

إنّها نظرية وليست نبوءة... فالنظرية تعمل الآن بينما نتحدث. أمّا النبوءة فهي مستقبلية

لقد انتهى أمري... أنا في عِداد الأموات

لماذا تقول ذلك؟

إنّ الزعيم قد ألزمني النزال مع سجين رقم 756 .. لو تراه يا عدنان يبدو كالغوريلا وكأنّه خرج من أحد أفلام هوليوود!

قل لي هل نحن في العصور الوسطى؟ .. ما كمية الجهل الموجودة؟ نزال!

هذا الأمر تغير في الخارج، لكنّه ما زال قائما هنا.

تغيّر لون طاهر الى الأصفر، يتنفس وكأنّ صخرة صوان تحطّ على صدره وقال:

سأكون بين يديه كحبة جوز هند.. هذا ما يريده هذا الزعيم الخنزير!

أخيرا وصلت رسالة من والده يقول فيها:

ولدي العزيز،

لقد نقلنا مصطفى في سيارة الإسعاف الى مستشفى الكرمل بعد أن فقد قدرته على التنفس. إنّه الآن موصول

بجهاز يضخّ له الاوكسجين ... نائم في معيّة اليقين،

استغنى عن الاختلاف الذّي أدّى به الى هذه الحالة، شاهد

على العدل المنقوص، مكتف بمصادقة السكون

واستغنى عن مصادقة البشر. إذا رأيته يتحول حقدك من

قلة الأيدي الداعمة إلى حنان يُعطيك قوّة على التسليم بلا

ضغائن. الطبيب يوقّت حياته المتبقية بعدة أيام، فلا تجزع.

والدك المحب،

مصطفى.

طلب عدنان مقابلة تمارا وكان له ما أراد، ثمّ قصّ عليها ما حدث. فتغيّر لونها، ثمّ قالت:

سوف أذهب اليوم اليه في المشفى، لأطمئن عليه... حبيبي

عدنان، قلبي يعتصر ألما وعيناي تتقّدان، لا أدري كيف

أواسيك وأنا بهذا الحزن.

كانت أخبار عدنان ونظريته قد شاعت في جميع زنازين السجن. وصاروا يتكلمون، ويتناقشون وتعلوا أصواتهم، وقد تجرأوا للمرة الأولى في تاريخ هذا السجن على مواجهة الزعيم وذكره، لتأكدهم بأنّ كلّ ما فعله سيعود عليه، بناء على النظرية، وليس هذا فقط بل إنّه سيتألّم كما آلمهم، وسيُضطهد كما فعل بهم!

أحسّ الزعيم بالخطر من الوضع الجديد، وتكلّم مع عوض قائلا:

إذا سار الامر على هذه الحالة، سيتحول سجنك إلى خراب!

أُحضر عدنان إلى مكتب الإدارة، ثم اجتمع مع عوض والزعيم. عرض عليه الزعيم أن يتخلى عن نظريته، ويترك عنه شأن السجناء، وبالمقابل فإنه سيضغط على رسمية كي توافق على إعطائه الدواء، ثم قال:

لدي جنودي في الخارج وهم قادرون على فعل أيّ شيء ... أعطني يوما واحدا وسيكون الدواء بين يديك، أنقذ ابنك يا عدنان.

(17)

قرائن الحقّ

سكينة السجن المؤقتة أوصلته لغنيمة فكرية، هي النظرية، وهي بدورها أوصلته الى شدّة لا يعلم قسوتها إلاّ من جربها، إنّنا نعلم تمام العلم أن أيّ قرار سيتخذه سيكون له أثر واسع على بقية حياته. وقد تساءل في هذه اللحظة " أتُرى أجهدت نفسي في ملاحقة سراب، تبيّن أنّه قاتلي. وأسفاه على جهد يُخيّرني بين الرمضاء والنار". إنّ الخشية تتعاظم بإحدى سبيلين، أوّلها الخوف من فقدان الاهتمام، وثانيها الخوف من حصول السوء، وقد صبّ السبيلان مباشرة في قلبه. فقد خشي من فقدان

الاهتمام بنظريته، التي تمثّل سر وجوده، وقد خشي من أن يُفجع في ولده.

كان يقول في نفسه " نحن الحُسّاد ضعفاء. وكلّ جديد ضعيف، وكل مُحبّ ضعيف، وأنا ضعيف مرتين. ليتنا كُنّا مُسخّرين" وكان يقول " نحن المُتطوعين سريعي النّدم، ونحن أصحاب الأعباء مُتعبون حدّ الإعياء".

أخذ عدنان يصرخ إذا باغته الغضب، ويصيح إذا اعتراه التعب، حتى ليُخيّل لمن يراه أنّه قد جنّ. آخر ما كان يتخيّله كان شفاعة الأنذال. أيختار إنقاذ حياةٍ، بأساليب ملعونة، أم يختار الضرّ بكامل قواه العقلية؟

التقى عدنان مع تمارا على عجل:

إذا بان لك سبيل لإنقاذ ابنك، حق عليك أن تسلكه مهما كان يا عدنان!

آه لو تعلمين صعوبة الأمر... لقد تساءلت طيلة حياتي، ما جدوى ذاكرتي القوية التي تمتعت بها أحيانا، وعانيت منها أحيانا أخرى. يا تمارا إنّ للصواب قرائن كثيرة. إنّ العلم بالظالمين هدى، وطاعة الفكر هدى، والمرض الذي يعقبه تبيان حقائق الأمور هدى، والتعب الذي يجذبك للتغيير هدى، وعلو الهمة هدى.

وماذا سينفعك الهدى إن أصبحت من الفاقدين؟

تحركت عيناه بالدموع وحدّق في زاوية المكتب، خوفا من هطول دموعه، وكأنّه يقول، ليثبت كلّ في مكانه.

آسفة جدا... لكن آلمني أن أراك تحت وطأة اختبار لا يتحمله بشر.

إنّ نظريتي أمانة في عنقي وإنّ ما يفعلونه ليس اختبارا إنّما أداة سلب... وإنّ لجوءهم لهذه الأساليب جهل، والهدى أبقى وأنصف من الجهل.

حانت ساعة النزال، الذي يُعتبر رياضة في السجن وفي كل مرة يقوم فيها عوض بتشجيعهم على رياضة أخرى، يرفضون. أُخذ طاهر الى الساحة بين الزنازين، وقد اصطفّ السجناء في حلقة دائرية، والحراس حولهم، يُرسلون النظرات بين الحين والآخر. كان حضور الزعيم مُلفتا للنظر... والحفاوة التي يتلقاها ظاهرة للعيان، يظهر بقداسة أبو منجل بمنقاره الطويل. بدأ النزال الذي كان أبعد ما يكون عن النزال، بل كان أشبه بالمطاردة بين آكل ومأكول. كان الغوريلا يلهو به كما يلهو القط بفريسته؛ فإذا ملّ أكله. انهال الغوريلا بالركلات والضربات المُبرحة على طاهر، من دون اعتبار لمناطق محرمة، حتى لم يعُد يقو على النهوض وفقد وعيه. فاز الغوريلا بعدما تجاوز جميع الحدود الآدمية.

حُمل طاهر الى زنزانته، وأمّا عدنان فقد أحتقر نفسه كثيرا، كونه كان مُتفرجا على هذه المهزلة، ولم يحاول ايقافها. نظر الى طاهر والكدمات الكثيرة تُغطي وجهه، فأخذ يواسيه:

لا تقلق... ستختفي هذه الكدمات قريبا!

اسمعني يا عدنان أريد أن أعترف لك بأمر

تكلم ...

اقترب عدنان من طاهر مستغربا!

أنت مستهدف من الزعيم ومن مدير السجن... لقد طلبوا مني أن ادّعي أنني من اكتشف نظرية " الزمن المقلوب"؛ فلمّا رفضت، قاموا بإجباري على النزال... وأظنّ أنهم لن يتركوني وشأني ... أردت أن أخبرك بالحقيقة، في حال حصل لي أيه مكروه.

فوجئ عدنان مما سمع، وفكّر في حلّ يُنجيه من هذه العصابة المُتربصة، فقد اتفقوا على أذيته. رأى عدنان أنّ أفضل حلّ هو مواجهتهم بالحقيقة التي يعرفونها، وأن يفضح نيتهم للعلن، لكيلا يواصلوا عملهم في الخفاء، فطلب لقاء عوض:

ما وراءك الآن يا عدنان، أرى أنّك لا ترتاح أبدا!

قصّ عليه عدنان المحادثة التي حصلت بينه وبين طاهر، فقال عوض:

لابد أنه يهذي بعد اللكمات التي تعرض لها... فعلا طلبت منه أن يدّعي اكتشافه للنظرية لكن لم يكن الهدف التعرض لك... إنّما لأني رأيت أنه أقدر منك على الخطابة وسيستطيع شرحها بطريقة تأخذ بالألباب وبذلك سينتفع الجميع.

ألا ترى أن للنظريات حقوق ملكية، لا يجوز أن تتصرف بما يحلو لك!

وهل كنت ستصل لنظريتك لولا قرطاس صديقك، ومصباح تمارا، وسماحنا لك بالكتابة في الزنزانة.

لكنني لو لم أكتب تجربتي الحياتية لما وصلت لشيء... فإنّ الكثيرين يكتبون، لكن لا أحد منهم وصل الى ما وصلت اليه!

إنّ الاكتشافات يا عدنان تكون للجميع

كلا ليست للجميع، لن أسمح بذلك... الجميع! وأين كان الجميع حين أردت شراء دواء لابني المريض.

عاد عدنان الى زنزانته فوجد طاهرا ما زال على حاله لم يتحرك، تكلّم معه فلم يُجبه... نظر اليه فرأى زبدا يخرج من فمه، وعينيه جاحظتين، وجسده متصلب، فاقترب منه فزعا وحركه فبدا وكأنّه بلا مفاصل، فتأكد حينها أنّه قد قتل؛ فصاح بالحراس " لقد مات طاهر أيها الحراس... أيها الحراس!".

تيقّن عدنان أنّ ما يحصل حوله، هو مؤامرة كبيرة بسبب تدخله في شؤون المساجين، وتأكّد أنّ عليه أن يُبادر بخطوة لئلا يكون فريسة سهلة، وتمنّى ألا يكون الوقت قد داهمه.

وصل المحقق الجنائي الى المكان وأخذ يعاين الجثة، ثم نُقلت الى معهد التشريح... هناك توصّلوا الى أنّ طاهر مات مقتولا بالسكتة القلبية، بسبب التّسمم بالسيانيد. وأنّ الكدمات

المنتشرة على أنحاء جسمه لم تكن هي السبب الرئيسي في موته، كما أُعتقد في البداية. أخذ المحققون يوجهون أصابع الاتهام إلى السجناء ومن ضمنهم شريكه في الزنزانة عدنان. أخبر عدنان المحققين أنّ مدير السجن قد توعّد طاهر، وأنّ طاهر قد اعترف لعدنان قبيل وفاته أنّ الزعيم والمدير يتربصان به. ومن جهة أخرى اتّهم عوض عدنان بقتل شريكه طاهر، وادّعى بأنّ لديه شُهودا قد سمعوا عدنان يقول لطاهر، بأنّه سوف يموت بسبب قتله لوالده.

عاد المحقق الى زنزانة عدنان وبحث عن أدلة من الممكن أن تُدين عدنان، وهناك وُجدت بقايا مبيد حشري يحتوي على السيانيد؛ فاقتيد عدنان الى الزنزانة الانفرادية، لظنّهم أنه يشكل خطرا على الناس، لحين عرضه على المحكمة.

كان مصدوما مما حدث، وتحدّث عن أنّهم قد نجحوا في حياكة مؤامرة ضده، لإبعاده، لكنه توعّدهم فلن يكون لقمة سائغة،

وسيفضح كلّ أساليبهم، وسيتحدث عن كل ما يحدث داخل هذا السجن، المفصول عن العالم الخارجي.

في اليوم التالي أقيمت محكمة مستعجلة، للبتّ في الأمر قبل أن تتسرب الأخبار الى الصحافة، وتتأثر القضية برأي الجمهور. حضر المتهمون جميعهم، وهم الغوريلا وعدنان وحضر الشهود، وهم الزعيم والمدير عوض. فُتحت الجلسة بضربة من مطرقة القاضي نديم السلال ثم قال:

تقام الآن الجلسة التحضيرية لبناء القضية، وتوجيه الاتهام، ولذلك تُقام من دون محامين، ثم طلب من مدير السجن عوض أن يدلي بدلوه

فوقف عوض ونظر الى القاضي وقال:

سيادة القاضي ... لقد هدّد عدنان طاهر بالموت وقد اتخذ خلفية علمية بواسطة ادّعائه اكتشاف نظرية الزمن المقلوب... لقد أحسّ السّجناء بالتهديد من نظريته ولو

تُرك لزادت ضحاياه، ولأصبح قاتلا متسلسلا فكُلنّا

مستهدفين، حتى أنت يا سيادة القاضي

وكيف عرفت أنني مستهدف؟

لقد وضع نظرية تقول أنّ من يفعل شيئا سيفعل به

...وبحكم وظيفتك فإنّك تحكم يوميا على الأشخاص...

وبما أنّه لم يتحمل فشل نظريته، ولا تراخي القدر في

التنفيذ، فأخذ القانون بيديه وصار يُنفذ نظريته. لذا لجأ الى

قتل القاتل بيديه وهو في هذه القضية، طاهر.

توجه القاضي الى الغوريلا وسأله:

بماذا تدفع عن نفسك التهمة بالقتل؟

سيدي القاضي ... إنّ النزال الذي يجري في السجن هو

شيء روتينيّ، نتخذه للتسلية وليست لتصفية الحسابات

... والحقيقة أنّه لم يمت أحد من المواجهة في السابق، هو

ما أدفع به ن نفسي تهمة القتل.

بعد ذلك طلب القاضي نديم من الزعيم، أن يردّ على اتهام عدنان له بالمؤامرة:

سيدي القاضي ... البيّنة على من يدّعي، وعدنان لا يملك دليلا على أنّي الفاعل، بل هي مجرد محاولة منه لصرف الأنظار عنه.

ضرب القاضي بمطرقته ثلاث مرات، مُعلنا انتهاء الجلسة. وأنّ غدا سيكون البتّ في القضية. لذلك فإنّ كلّ من يحتاج الى محام للدفاع، فليتواصل مع أحدهم.

بعد الجلسة حضر لزيارته المحامي بشير، الذي قال أنّ والد عدنان وكّله، ليترافع عن ابنه في المحكمة غدا... وحضر مصطفى والد عدنان بعد أن أُبلغوا جميعا بما حدث، فلما رآه عدنان خاطبه معاتبا:

ما هذا الجفاء؟ لماذا لم تتواصل معي كل هذا الوقت؟

آسف يا ولدي ... لقد كنت مشغولا بعلاج ولدك مصطفى... أريد أن أُبشّرك بأنّ مصطفى قد تلقّى الوجبة الأولى من الدواء وقد بدأ يُظهر تحسنا كبيرا

ماذا! كيف؟

بدر هاني يا عدنان هو ابن أخ رسمية... لقد طلب منها أن تُعطي العلاج لمصطفى ثم انسابت الأمور انسيابا غريبا، حتى حصل مصطفى على العلاج بشكل مستعجل

بدر هاني! الذي لا يأخذه أحد على محمل الجدّ، استطاع إنقاذ ولدي... فعلا إنّ الاستخفاف خداع للنفس. وحتى الناس البسطاء يدخلون في الحلول العظيمة! كيف لم استشره من البداية، لكان وفّرعليّ ليال باردة من السجن، لكن هذا هو جزائي على جهلي، وعلى علمي الذي تعلمته بالانطباعات الخاطئة. اريدك ان تشكره باسمي شكرا حارا.

أقبل عدنان الى والده يقبل يده، ويشكره على المجهود الذي بذله حيث كان أقرب الناس من ابنه، وأحسّ أنّه قام بجهد جبار. نظر إليه والده، والدموع في عينيه وقال:

لست وحدي من يقف وراء هذا الإنجاز!

من صفوان؟ بالتأكيد سوف أشكره شخصيا

لا... ليس صفوان!

من إذا؟

جليلة!

أجننت؟... جليلة ماتت... أنسيت؟

أخذ مصطفى يبكي بحرقة وقال:

جليلة لم تمت ... لم تمت يا عدنان ... وما كان الشاهد الذي كُتب عليه اسمها في المقبرة إلّا تمثيلية أعدّتها تمارا بإحكام، لتكون جزء ممّا أسمته العلاج بالصدمة!

انهار عدنان مما سمع؛ فسكبوا عليه الماء، فلمّا أفاق قال:

لماذا لم تأت جليلة لرؤيتي، كل هذه الفترة؟

لقد منعتها تمارا من ذلك، إذ اعتقدت أنّ ذلك قد يؤثر سلبا على حالتك، وقد يؤدي الى انتكاسة، اذ ادّعت أنّ على الصدمة أن تستمر، حتى تتيقن أنّ فقدان الذاكرة لن يعود ... لقد كانت جليلة تعاني وحدها بشدة، وكثيرا ما كانت تحاول الوصول اليك، في لحظات يأس وتعب.

أغمض عدنان عينيه، وعضّ على شفته السفلى، وشعر بالغضب الشديد من كمية تلاعبهم في حياته، وهو الذي كان يظن أنّه لا يجوز لأحد ان يتلاعب بالحياة والموت، ولو بدافع الحب، ولو بدافع العلاج. إنّه وفي قمة خياله لم يتخيّل أن تكون جليلة على قيد الحياة... أحسّ عدنان بغضب شديد تجاهها، وطلب من والده ألا يسمح لجليلة أن تأتي لزيارته أبدا. وما أن أتمّ جُملته حتى رأى جليلة تقف عند المدخل، فاندهش وتأمّل ملامحها الكئيبة الخجلة، وذُهل فلم يعرف كيف يتصرف، فما

كان من جليلة إلا أن قفزت عليه وحضنته بقوة، وسالت دموعها على كتفيه بغزارة، فوضع راحتيه على كتفها، بعدما أحسّ بحرارة دموعها، ثم قال:

كيف طاوعك قلبك... لتقومي بهذه التمثيلية؟

إنّ ذنبي الوحيد أنّي فكّرت بكم ولم أفكر بنفسي... لقد فعلت ذلك، لنكون معا جميعا للقد آثرتكم عن نفسي... لكنني لم أتمالك نفسي، فكنت أكتب لك... إنّي أنا المترقبة!

ولماذا لم تعودي بعد أن عادت ذاكرتي؟

لقد أخبرتني تمارا، أني إن عدت فسوف أسبّب لك انتكاسة في الذاكرة، غير قابلة للتصليح.

تمارا! وهل صدّقتها؟

لقد صدّقتها... حين رأيت ذاكرتك قد عادت إليك.

اعتني جيدا بمصطفى... على الأقل فأحدنا الآن الى جانبه

لو رأيته... لقد تحسّن كثيرا... لقد بدأتُ أعلّمه، لينطق كلمة " بابا". قالت ودموعها زخّات على وجنتيها.

(18)

النظرية والأزواج

فكّر عدنان في حبّ تمارا له، وأراد أن يخبرها بشدة، أنّ من القسط ألا تجري وراء شيء ليس لك، ناهيك عن استعمال أساليب قاسية، فيها من العذاب والأوجاع ما يكفي دولة كاملة، ثم تساءل كيف يسمح البشر لأنفسهم أن يسلُكوا طُرقا ملتوية بدافع الحب؟ ورأى أنّ من الحب ما قد يكون ظُلما بواحا، ثم قال في نفسه " أيّ حبّ هذا الذي يقوم على النفاق والكذب". لكنه الآن تائه جدا لا يعلم وجهته أيرجع إلى حضن الماضي الذي ظهر فجأة، أم يُكمل إلى المستقبل الذي بدأ يمشي فيه أولى خطواته.

دخل بشير الى عدنان ومصطفى وعلى ما يبدو؛ فإنّه قد سمع كلامهما معا، فقال لعدنان بأنّ عليه أن يُفكّر جديا في مقاضاة تمارا، فقد شكّ بشير أن تمارا كان تجري على عدنان بحثا عن العلاج بالصدمة، ولكنّه نبّه عدنان على ضرورة تأجيل ذلك، لحين يبتّ في قضية قتل طاهر، التي ستكون غدا، ولم يُعلّق عدنان على كلامه وآثر ألا يبوح له بحبه لتمارا. وبعد استماع بشير لتفاصيل القضية قال لعدنان:

اسمع ورقتنا الرابحة، هي تنازلك عن النظرية، والادّعاء أنّ طاهر هو من اكتشفها وبذلك نبطل ادعائهم المبني على أن تصرفاتك مسيرة حسب النظرية

لكن ذلك ليس صحيحا! ماذا عن حقوقي الفكرية؟

صحيح أم غير صحيح، هل تريد رؤية عائلتك قريبا أم لا؟

كان عدنان يشارك بشير الكلام إلا أنّ تفكيره كان في مكان آخر... أحسّ أنّ مُخّه مُتغضّن بالبترول، وأحسّ بثقله حتى خشي من أمكانية كسر رقبته من الثقل. لكن بشير أكمل:

هل زارك أحد في السجن يا عدنان؟

كلا!

من كان يستطيع الدخول الى زنزانتك بحُرّية؟

الزعيم ... مرة دخل وتهجّم علينا!!

هل رأيت مخبأ في السجن، أو سجناء يتبادلون أشياء فيما بينهم؟

كلا... لقد كانوا يتجّنبونني طيلة الوقت.

وهكذا اتفق عدنان وبشير على خطة الدّفاع، وخرج بشير من عنده على أن يلتقيا في المحكمة غدا.

في اليوم التالي افتتحت الجلسة، وبدأ بشير يدافع عن عدنان قائلا:

سيادة القاضي، إنّ الاتّهام المُوجه إلى مُوكّلي، والذي ينصّ على أنّه تبنّى تنفيذ الأحكام بنفسه باطل من أساسه ... فإنّ موكلي لم يكن صاحب النظرية حتى يُطبقها بنفسه... كان طاهر هو من أوجد النظرية.

طلب بشير من القاضي أن يستجوب مدير السجن عوض، فوافق:

هل كنت تعلم بوجود نزال في السجن، لا يترك أحدهم الآخر حتى يُدميه

نعم... إنّه شيء شائع في السجون... إنّها تُعتبر نوع من أنواع الرياضة

هل الاشتراك في النزال اختياري أم اجباري؟

لا أدري ...

لا تدري! أليست وظيفتك في السجن، مراقبة ما يحدث ... أليست وظيفتك حماية السجناء الضعفاء؟

هنا اعترضت هيئة الادّعاء على كلامه، كونه يُشير إلى وقوع خلل من المدير، ستؤدي الى اتهامه من دون دليل، فوافق القاضي على ذلك، وطلب من بشير تغيير السؤال.

لقد قُمت بالتوعد من طاهر وتهديده ... هل هذا صحيح؟

لا أرى أية علاقة بين ذلك وقتله!

أجب عن السؤال لو سمحت... هل قمت بتهديد طاهر

مم... نعم ... لكنني لم أهدده بالقتل ... ما يهمني هو استتباب النظام

هل تفتشون كل ما يدخل الى السجن؟

نعم بالتأكيد!

إذا كيف تمّ ادخال السيانيد الى الزنازين؟

مرة أخرى قاطع الادّعاء بشير كونه يُلمّح الى مسؤولية عوض عن الحادثة، فوافق القاضي... اكتفى بشير من عوض وطلب من القاضي استجواب الغوريلا، فوافق:

لماذا كان يحاول طاهر الهرب منك أثناء النزال؟

لقد أحسّ بأنه سيخسر!

هل بدا لك أنّه كان مُكرها على النزال؟

لقد بدا لي خائفا!

لماذا لم تتوقف عن ضربه إذا؟

يتوقف النزال بإشارة من الزعيم؛ فإذا لم يُعط الإشارة أكملنا.

سيادة القاضي هذا الملف الذي في يديّ، يوضح أنّ طاهرا تمّ تعنيفه، وحبسه في الحبس الانفراديّ على مدار سنتين، قبل مجيء عدنان، لأنّه لم يكن يُحبّ النظام المعمول به

في السجن، لذلك فقد حيكت ضدّه المؤامرات التي كانت آخرها قتله، وقد اتّهموا عدنان بذلك... لذلك أطلب من سيادتكم تبرئة موكلي، ونقله الى سجن آخر ليُكمل محكوميته.

بعد تفكير عميق، والاستماع الى الشهود، وحساب نسبة الدلائل، وبحث في الملفات المتواجدة أمامه قال القاضي نديم:

إنّ المحكمة ترى خطورة القضية، التي تُعدّ حادثة قتل مع سبق الإصرار والترصد، وإنّها لتولي أهمية قصوى في كشف الجاني، وإنزال أشدّ الأحكام به فإنّ قتل السجناء في زنازينهم باستعمال السيانيد لهو سابقة. وإنّ المحكمة تحثّ الجمهور على معرفة حدود موهبتهم لئلا يقعوا في المحذور، فما كان لعدنان صاحب الذاكرة الفذة أن يُطبّق نظريته بيديه، فمن أجل ذلك وُجدت الاختصاصات، وأقيمت المؤسسات. بناء على ذلك وبناء على وجود بقايا السيانيد تحت سرير عدنان. حكمت المحكمة على عدنان

بالسجن عشرين عاما منفردا ومنعزلا لخطورته على المحيطين به. رُفعت الجلسة

التفت بشير إلى عدنان، واعتذر منه فقد حاول جهده... فقال عدنان:

لقد فكّرت في كيفية تطبيق النظرية على الأزواج ... وقلت إن كانت جليلة قد تركتني وابتعدت بهذا الشكل، فكيف سيكون الرد حسب النظرية؟ لكنّ نظرية الزمن المقلوب لا تُعطي تخفيضات للأحبّاء، وسيكون علينا أن نفترق مرتين.

عدنان في الحبس الانفرادي... تغيبُ الأيّام وهو يغيب معها، ويذوب فيها شيئا فشيئا. وبعد ثلاثة أسابيع طلب عدنان من الحارس أن يوصل رسالة إلى الخارج، وأن يُسدي إليه معروفا عبر وعد مُغلّظ بالقَسم، أن يوصلها. لكن على عادة الحراس، أن يُفتشوا كل شيء، فقد قرّر قراءة الرسالة وكان مكتوب فيها:

" أحبائي... لقد تحملت جميع المآسي، إلا أنّ القلب لا يتسع لحبيبين، وقد سئمت من الاختيار... أتعلمون... إنّ أكثر ما يُحزنني أنّ ما يجمع بيني وبين من حاك لي المؤامرة هو الجهل، فجهلي قادني الى الغرق في غياهب السجون، وجهلهم قادهم الى طمس الملامح واستعمال السوء. لا أدري أيهما أختار، جليلة أم تمارا. لكن لا قيمة لاختياري فقد قُدّر لي أن أموت في هذه الزنزانة. لكن إذا سألتموني أيهما أختار، لو كُنت حُرّا لكنت اخترت من يقدر على حبّي كما أنا"

قلّب الحارس الرسالة، فلم يجد عُنوانا لتصله، فعاد إليه على عجل، وأراد أن يُخرج مفتاح الزنزانة من جيبة، فلمح فراشة رمادية تقف على باب الزنزانة، فتعجب وقال:

ماذا تفعل فراشة في هذا الوقت وهذا المكان!

****

إنتهى**********